

6me Année, No . 248

Lundi - 4 - 4 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ صفر سنة ١٣٥٧ — ٤ ابريل سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

محنة شهـــر !!

ذلك الشهر كان شهر مارس ! ومارس فى أساطير الأولين إله الحرب ! ابتليت فيه مصر الوديعة بسطوة الهوى على الرأى ، وعدوان الشهوة على الخلق ، فجاءها بالخلاف وذهب بالأمن ، وابتدأ بالصراع وانتهى إلى الفجيعة . فليت شعري ماذا جنى الزاعمون(١) على الناس من بلايا الناس ؟

كانت مصر طوال هذا الشهر كالبركان الجهنمى الثائر ، يغلى بالحميم ويرمى بالحمم ويطغى بصهيره الخانق على المغانى والربوع فيهلك الأموال ويزهق الأنفس ، ثم يكون ظلاماً فى الأرض ، وقتاماً فى الجو ، ونتناً فى الهواء ، ومواتاً فى الطبيعة

وكانت الأمة المسكينة تنفق على معارك الانتخاب الدائرة بين الأحزاب أكرمَ ما تملك من المال والدم والخلق ، وهى لا تدرى لهذه الضحايا الغالية التى لا ثواب عليها ولا عوض منها ، حكمةً ظاهرة ولا ضرورة ملجئة

وكان المرشَّحون المتنافسون يتعاقبون على الدوائر الانتخابية تعاقب السنين المواحق ، فلا يتركون وراءهم إلا أُسَراً تتفرق ،

(١) زعم على الناس : تأمر عليهم وترأس

١٠ ٣٦

ووشائج تتمزق ، وضمائر تُشترى ، وذمماً تسرق ، وعصبية تثور ، وأحقاداً تُبعث ، وأموالاً تُهلك ، ودماء تسفك ، وأعمالاً تبور .

فتعالوا نناشدكم الله يا نوابنا وأحزابنا وزعماء الرأي فينا . هل تشعرون بثقل هذه الأوزار التى حُمِّلتموها فى سبيل التكالب على النيابة والتسابق إلى الحكم ؟

ألا تريدون أن تنسوا أن العضوية فى مجلس النواب أو فى أندية الأحزاب ليست إلا وصفاً يتمم العنوان ، ومنصباً يلازم الغنى ، ووسيلة تعين على العيش ، وطريقة تؤدى إلى الجاه ؟

ألا تحبون أن تذكروا أن النيابة عن الأمة معناها حلول أمة فى فرد ، واستيعاب فرد لأمة ؛ فهواها غالب على هواه ، ورضاها مقدَّم على رضاه ، ورأيها مستبد برأيه ، وصوتها مجلجل فى صوته ، وهمها شاغل لفراغ باله ؛ فإذا مثل النائب فى المجلس دور الكُمْبَرْس ، أو وقف فى المناقشة موقف الإمَّعة ، كانت نيابته بعد انتخابه مصاباً بعد مصاب ، وويلاً بعد عذاب ، وكفراً بعد خطيئة ؟

ألا تودون أن تفهموا أن البرلمان بالأمس كان حَسْبُهُ أن يكون مظهراً من مظاهر الاستقلال ، وعنواناً من عناوين الدولة ، وأن العضو فيه كان حَسْبه أن يشارك فى أبهته ، ويشرب أكواب الليمون فى ردهته ، ويفتح مغاليق الأمور بقوته ؛ أما اليوم فهو تعبئة لكفايات الشعب ، وتجميع لرغبات الأمة ، وتهيئة لقواها العاطلة وأسلحتها الكليلة أن تضمن لنا حق الحياة والكرامة ، وللوطن حق العزة والسلامة ؟

الأسود الروابض على حدود الوادى تتحلب أفواهها شرهاً إلى افتراسه ، والنسور الحوائم على حواشي الوطن تترقب الفرص لانتهاسه ، وطاغية روما الطموح ينذر الناس أنه يرصد الأُهب فى البر والبحر والسماء لحرب جديدة . فهل يشق عليكم أن تدركوا أن للنائب فى هذا الوقت العصيب عملاً غير الحفلات والوساطات والغنيمة ، وأنه إذا دخل المجلس من غير مبدأ ، وجرى فيه إلى غير غاية ، واستغل حقوقه من غير عمل ، كان داخلاً فى غير أهله ، ونازلاً فى غير ملجئه ؟

* * *

أحزابنا متعددة كتعدد الأحزاب الأوربية فى البرلمانات الديمقراطية العظيمة ، ولها بمقتضى هذا التعدد أندية وصحف وأتباع ؛ ولكنها تختلف عن أحزاب الأمم بأن ليس لها خطة فى الإصلاح مرسومة ، ولا غاية فى السياسة معلومة ؛ فهى إلى اليوم تتميز بالأسماء لا بالبرامج ، وتتقارع بالمقالات لا بالخطط ، وتتنافس فى بلوغ الحكومة لا فى خدمة الأمة

من أجل ذلك كان مرشَّحو الأحزاب لايجدون ما يقولون فى خطبهم الانتخابية غير الجمل الجُوف ، والوعود المبهمة ، والتهم الجريئة ، والدعاوى العريضة ، والعيوب الخاصة ، حتى تركوا البلاد من صعيدها إلى ريفها ضجة من البذاء ، وغمة من البلاء ، ومزقاً من الأعراض والخلق

على أننا نرجو أن تكون هذه المحنة آخر المحن ، وأن تموت فى سبيل الوطن هذه الحزازات والإحن ، وأن تنكشف عماية الحيرة عن عيون الأمة فتبصر وجه الرأى الذى تستقيم به الحال ، ويستقر عليه الأمر ؛ فقد عودنا شهر مارس أن يكون حميد الأثر فى الحياة المصرية . ففى مارس من عام ١٩١٩ استيقظ أبو الهول ، وشبت ثورة النهضة ، وتنافس فى الجهاد النساء والرجال ، وتعانق على الوداد الصليب والهلال ، وتسابق إلى الاستشهاد الشيوخ والأطفال ، وسالت أنفس الشباب ضحايا على مذبح الحرية !

وفى شهر مارس من عام ١٩٢٢ ألغيت الحماية ، وأعلن الاستقلال ، وصدر الدستور !

وفى شهر مارس من كل عام تتجدد الحياة ، وتهتز الأرض ، ويورق الشجر السليب ، ويمرع الوادى الجديب ، وينشد الربيع الباكر أناشيد الجمال والحب والأمل !

احمد حسن الزيات

داء الشعور بالحقارة أيضاً

للأستاذ عبد الرحمن شكري

قرأ أديب مقالة داء الشعور بالحقارة فقال إن الصفات التي ذكرتها صفات شائعة في النفس الإنسانية . وكأنه بهذا القول يريد أن ينكر أن في النفس ما يصح أن يسمي داء الشعور بالحقارة . فذكرت الأديب بأن صفات الخير والشر كلها موجودة في كل نفس ، فلكل نفس منها نصيب قل أو كثر ، ولكن هذه الحقيقة لا تمنع من تفاوت النفس تفاوتاً عظيماً حسب نصيبها من صفات الخير أو الشر . ولا نريد أن ننكر أن جرثومة الحقارة تلفى حتى في النفوس العظيمة ؛ هذا أمر نريد أن نثبته وإلا ما استطاع القارئ أن يعترف بما ذكرناه في مقالنا من أن داء الشعور بالحقارة قد يصير وباء في بعض البيئات ، وأن له عدوى كعدوى الأمراض الجثمانية ؛ فلولا هذه الجرثومة التي تشترك فيها النفوس قاطبة ما استطاعت نفس أن تؤثر في نفس أخرى وأن تحملها على محاكاتها في الأفعال أو الأقوال الناشئة من شعورها بالحقارة

إن صفات الخير أو الشر شائعة في النفوس الإنسانية ؛ وهذا سبب العدوى وسبب المحاكاة . ولكن شيوع صفة من الصفات في النفوس لا يجعلها مرضاً مزمناً ، وإنما تصير تلك الصفة مرضاً إذا غلبت على النفس وصارت محور أعمالها وأقوالها وطغت على كل صفة أخرى أو حاولت هذا الطغيان وتملكت المشاعر . وفي هذه الحالة يكون الداء النفسي في أشد حالاته ، ولكن له حالات أخف وأهون

وقد ذكرنا أن ذيوع داء الشعور بالحقارة يكون أعظم في الأمم التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة ، غلبة تشعرها الذلة والمسكنة سواء أكان الغالب قاهراً أتاها من الخارج أو حاكماً من أبنائها . وتظهر أعراض هذا الداء إذا قلت وطأة تلك الغلبة أو زالت أسبابها وزادت الحرية ، فتبرز وتعظم صفات القلق والألم والحقد والحسد خشية أن يفطن أحد إلى ما يشعر به صاحب داء الشعور بالحقارة في سريرة نفسه . وقد يكون شعوراً غامضاً لا يتبينه تماماً فيتعاظم تعاظماً لا اطمئنان فيه ، لأنه تساوره الأحقاد والحسد فيتم تعاظمه عما يبطنه من الشعور وما يعالجه من داء الحقارة . وفي بعض النفوس يظهر الداء بمظاهر التواضع وتحقير النفس تحقيراً يخالطه الحقد والحسد والقلق ، فتنم هذه الصفات أيضاً عما يعالجه المرء في سريرة نفسه من الشعور بالحقارة . وقد يعالج هذا الشعور وهو لا يدركه ولا يفطن له تماماً ، وقد يدعي المتواضع المصاب بداء الحقارة أنه أكرم خلقاً من المتعاظم بهذا الداء . ولم نقل إن داء الشعور بالحقارة لا يظهر إلا في تلك الأمم التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة ، وإنما قلنا إن ذيوعه فيها أكثر ، وصفاته ومظاهره أكثر تنوعاً وتعدداً ، وأعراضه أشد : من حب للظهور ومن دس وكيد وحقد وحسد . ولم نقل إن الكيد والحقد والحسد والتنافر ليس لها إلا هذا السبب وإلا هذا المصدر ، فلها أيضاً أسباب أخرى ، ولكن إذا ظهرت الصلة بينها وبين داء الشعور بالحقارة في مثل تلك الأمة أو البيئة الموصوفة كان هذا الداء هو سببها ، وحتى في حالات الأفراد المصابين بهذا الداء في بيئة سليمة منه قد تظهر صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة ظهوراً ليس مثله ظهور . أما في البيئات الموبوءة فليست الصعوبة في معرفة صلات هذه الصفات والمظاهر بالداء ، وإنما الصعوبة في حصرها وعدها ولم شملها وتشعبها تشعباً عظيماً ؛ وهذا التشعب والتفرع قد يبعدها عن أصلها لكثرة الفروع وفروع الفروع حتى يخيل للرائي أن لها أسباباً أخرى غير داء الشعور بالحقارة الذي هو منبتها وجذرها وجزعها في تلك البيئة ، فتتكاثر صفاتها أمام الباحث تكاثر الظباء على خراش . على أن العقل لا يجد صعوبة في أن يفهم منشأ هذا الداء في الأمم التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة تشعرها الذلة والمسكنة ، ثم جاءت الحرية . ومن لوازمها أن يخفي الحر ما يشعر به من صفات متوارثة أو غير متوارثة ، وهذه الرغبة في إخفاء ما في نفسه من داء الشعور بالحقارة قد تصير داء يتلمس كل وسيلة شريفة أو دنيئة ، وقد يشرف بصاحبه على الجنون أو يبلغه ، وقد يدفع إلى الجرم . وفي اعتقادي أن مباهاة التعس للتعس من فقراء الفلاحين مباهاة ربما دعت إلى الجرم والإثم من أجل سبب تافه إنما تنشأ من هذا الداء ومن هذه

المؤثرات الاجتماعية القديمة الحديثة . وكذلك حب الظهور الذي قد يودى بالأملاك ويؤدى إلى خراب الأسر إنما هو داء الشعور بالحقارة الخفي يبرز فى شكل تعاظم مصحوب بالقلق والحقد والحسد . وهذه المظاهر تشاهد أيضاً فى نفوس بعض الموظفين والطلبة وسكان المدن الكبيرة . ولا بد أن نقول مرة ثانية إن صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة فى بيئة اعتورها ذل ثم حرية بعد ذل طويل ، صلات ظاهرة لا تنكر ، وإن تلك الصفات ليست فى شكلها الذى تشترك فيه النفوس البشرية عامة بل زادت واشتدت حتى صارت داء ، وإنه لا يرجى رقى ولا تصلح تربية ولا يصلح تعليم ولا ترجى ثمراته كلها إلا إذا عولج داء الشعور بالحقارة وأعراضه

وكانت الحرية الكاشفة عن هذه الصفات الكامنة أشبه الأشياء فى فعلها بالخمر التي تظهر الصفات الكامنة ؛ فإذا كانت فى طبع المرء شراسة أظهرتها الخمر إذا سكر ، وإذا كان في طبعه إسراف زادته الخمر إسرافاً حتى يكاد السكران يخلع كل ثيابه ويتصدق بها على الناس ؛ وإذا كان في طبعه ميل إلى الإجرام دفعته الخمر إلى ارتكاب الكبائر

وليس بين القراء من لم يشاهد مريضاً بداء الشعور بالحقارة ، ولكن ذيوع هذا الداء فى بيئة يجعله مألوفاً ألفة تفقده الغرابة ، فلا يشعر به الإنسان فى تلك البيئة إلا إذا بحث عنه وتعمد الفطنة له

وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من العلم أو الذكاء كانت لجاجته فى جداله وحديثه أعظم ، وكان غضبه إذا خولف أشد ، وكان ادعاؤه العلم بكل شئ أوفى وأتم ادعاء ، وكان حقده على من يخالف رأيه أبعد أثراً وأطول عمرا وأعمق مقراً من نفسه ، حتى ليكاد يأتى ربه يوم القيامة وأوضح أثر في نفسه حقده على من خالفه فى رأيه فى الحياة الدنيا . والويل لك إذا عاشرت من اشتد به داء الشعور بالحقارة ، فإنك إذا عاونته حقد عليك من أجل فضلك عليه الذى يهيج شعوره بدائه ، وإذا لم تعاونه حقد عليك أيضاً من أجل حاجته إليك التى تهيج شعوره بدائه . وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال ادعى الثروة ، وقد يبلغ به داء الشعور بالحقارة منزلة يضن فيها بما معه من المال على عياله كي يظهر به فى المجالس والنوادى وبين الغرباء ، بمظاهر الأريحية والسخاء والثروة . وهو يتلطف ، وقد يتذلل لمن يريد أن يقنعه أن صفات الأريحية والسخاء من صفاته وإن لم يكن من طبعه إلا الشراسة والحقد . وهو يحقد على كل من لا يمكنه من الظهور بمظهر التعاظم والأريحية ومن لا يهيئ له السبيل إلى ذلك ، وعلى من لا يضحى بكل شئ فى سبيل تهيئة وسائل الظهور له ، وعبثاً تحاول أن تظفر لدى من اشتد به هذا الداء بوفاء أو ود ، وعبثاً تحاول أن تفهمه حقيقة الأمر ، فإنه يخادع نفسه حتى يعتقد أنك تحسده على ماله من مظاهر العظمة أو الأريحية أو الذكاء النادر أو على منزلته فى قلوب الناس . وفى البيئة التى يذيع فيها داء الشعور بالحقارة يعتقد كل إنسان أنه عظيم الشأن ، أو يحاول أن يعتقد هذا المعتقد وأن يحمل الناس على اعتقاده ، ويرى أن أكبر جريمة فى العالم هى أن يجيد إنسان أو أن يظن أن إنساناً أجاد (وإن لم يكن قد أجاد) فى عمل أو قول أو جهد أو رأى أو صنع ، سواء أكانت الأعمال والأقوال مما يرجى فيه الخير للجميع أو مما فيه خير خاص ، وسواء أكان فيها نفع للمريض بداء الشعور بالحقارة أو لم يكن فيها نفع ، وهذا الحقد الذى يشعر به هؤلاء قد يخفى نفسه ويظهر بمظهر العبث ؛ وقد لا يخفى نفسه . وقد يدعى الغيرة على الخير والفضل ، وقد لا يدعى ، وهو دائماً كالحيوان فى الغابة متحفز للوثوب والظهور إذا أتيحت الفرص ، فإذا لم تتح الفرص لم يثب . وكثيراً ما تراه فى أوجه أصحابه عبوساً خاصاً ينم عن جنون الحقد ، وفى مثل هذه البيئة لا يعد المريض بداء الشعور بالحقارة المشقة مشقة إذا كانت من أجل إحباط عمل زميل أو غير زميل ، كأنما تلك البيئة رقعة الشطرنج بين يدى لاعبين ماهرين لا يبقى كل منهما ولا يذر

ولعل السبب فى أن الإنسان فى تلك البيئة التى اعتورها ذل طويل ثم حرية لا هم له إلا منع غيره من الظهور (وكلما كان الظهور بالإجادة فى صنع أو قول كان الخوف منه أعظم) أقول لعل السبب هو الرجوع بالسريرة وبالنفس إلى عهود ذلك الذل الطويل وطغيان الذين ظهروا فى تلك العهود طغياناً سبب ذلك الذل الطويل وسبب داء الشعور بالحقارة ؛ وربما ظهر الظاهرون فى تلك العهود بقدرة أو إجادة فأصبح المرضى بداء الشعور

بالحقارة ، حتى بعد تلك العهود القديمة البائدة ، يكرهون كل ظهور بقدرة أو إجادة لأن فيه مذلة لأنفسهم

وهؤلاء الناس قد يتعاونون في إظهار من برز بقدرة أو إجادة ولكنهم قلما يفعلون ذلك إلا إذا كانوا يرجون في إظهاره إظهاراً لأنفسهم وإبرازاً لها واكتساباً لأنفسهم شيئاً من الشهرة بالاجادة التي لصاحبهم ، أو إذا كانوا يرجون منه أن يساونهم بقدرته على الظهور وإشباع نهمتهم منه

ويبدو داء الشعور بالحقارة أيضاً بين طائفة الخدم والحشم والرعاع فيحسبون أنهم يخفون ما يشعرون به من ضعة منزلتهم الاجتماعية بمحاكاة من هم أرفع منهم منزلة في اللباس أو في فتل الشارب أو في التنحنح أو في الفكاهة أو في التعالي والتعاظم على أصحاب الحاجات وكل من يريد مقابلة مخدوميهم . وإذا كان المخدوم أيضاً مصاباً بداء الشعور بالحقارة ويخفيه بالسفاهة حرت وصرت لا تدرى أيأخذ الخادم من أخلاق مخدومه أم يأخذ المخدوم من أخلاق خادمه . وكثيراً ما يتخذ كل منهما الآخر نصيراً في خصوماته التي يخلقها من أجل شعوره بالحقارة . والفلاح الذي يغرى المجرمين والأشرار بمن لا يحييه وهو جالس على المصطبة ولا يتزلف إليه مثل الموظف الصغير المنزلة أو كبيرها الذي يغرى الأشرار ممن لا يتزلف إليه

وهذه الطوائف كلها تجنى على الصغار بتأثير قدوتها فيهم . وكثيراً ما يكون سبب إساءة التلميذ أدبه رغبته في حب الظهور الناشئة من هذا الداء . وحب الظهور صفة عامة في النفوس كما قلنا ، ولكنها في البيئات المريضة بداء الشعور بالحقارة تتخذ شكلاً وضيعاً خاصاً وهي تكون مصحوبة بالصفات النفسية الوضيعة التي ذكرناها . ومما يدل على أن داء الشعور بالحقارة ينشأ بسبب عصور الغلبة التي تشعر بالذلة والمسكنة أن صفاته تكثر وتشيع بين العبيد وأبناء الأرقاء ، أو من كان أجدادهم أرقاء في العصور الغابرة وبين أبناء الشعوب التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة خلقت التواء في الخلق ولؤماً . ولعل هذا الأمر يفسر ما نقرأ في محاكمات قضايا الروسيا من أعمال أبالسة أدنياء كانوا أرقاء أو مغلوبين على أمرهم عصوراً طويلة ، فلما نالوا الحرية أظهرت ما كمن في نفوسهم ، وهذا سواء أكانت هذه الأعمال قد فعلها من نسبت إليهم أم أنهم حملوا على الاعتراف بها كذباً بوسائل جهنمية ، ولا ينفى هذا الاستنتاج أن السياسة الدولية وعمالها السريين قد يستبيحون كل جريمة ضرورية وغير ضرورية في تنفيذ أغراض السياسة السرية وملحقات تلك الأغراض

ومن التلاميذ الصغار من يصاحب أهل الفساد أو المصابين بداء الشعور بالحقارة ، فيريد أن يخفى التلميذ شعوره بالنقص أو الفساد الذي لحقه بإساءة أدبه . وكثيراً ما يحاكي الصغار هذه الطوائف حتى من كان منها من الرعاع فيحاكونهم في مشيتهم وإشاراتهم وأقوالهم ، ويحسبون أن تلك المحاكاة تكسبهم رجولة وبطولة من غير أن يشعروا أن الرعاع أو من هم أكبر منهم منزلة وأعظم علماً من المصابين بداء الشعور بالحقارة يصدرون ويردون في أقوالهم وأعمالهم وإشاراتهم وحركاتهم وهم مُسَيَّرُون لا مخيرون ، وأنهم في كل هذه الأحوال طوع شعورهم بالحقارة وطوع الرغبة في ستر ذلك الشعور فكأنهم لعب خيال الظل يحركها المحرك من وراء ستار

عبد الرحمن شكرى

صفات النساء النفسية

بين سذاجة الطفولة وعبقرية الفكر

للدكتور جميل صليبا

كثيراً ما بحث الأدباء في النساء وصفاتهن وما يحمد ويذم من أخلاقهن، فوصفوا المرأة الصالحة والزوجة الموافقة، كما أفاضوا في ذكر صفة المرأة السوء وشرها. فأحسن النساء عندهم من كانت شريفة في قومها، كاملة في عقلها، فصيحة اللسان صادقة محبة لزوجها، حافظة لسرها؛ وشرهن من كان كلامها وعيداً وصوتها شديداً، تدفن الحسنات وتفشي السيئات، صخوب غضوب ضيقة الباع. إلا أن هذه الصفات التي ذكروها لم تبن على استقراء علمي ولا تحليل نفسي. فما هي صفات النساء وما هي أنواعهن عند العلماء؟

بينما كنت ذات مرة ألقي درساً في علم النفس على تلاميذ لم يتجاوزوا الثامنة عشرة من سنهم قال لي أحدهم بعد أن ذكرت صفات الحوادث النفسية: هل تنطبق هذه الصفات على المرأة، أم في الأرواح تذكير وتأنيث؟

إن هذا السؤال — بالرغم من سذاجته — يتضمن شبهة فلسفية عميقة. فهل تشعر المرأة كما يشعر الرجل؟ وهل تفكر كما يفكر أو تريد كما يريد؟ وهل تختلف مشاعرها عن مشاعر الرجل كما يختلف جسمها عن جسمه؟

قال بعضهم: إن الفرق بين المرأة والرجل في الحس والفكر والإرادة عظيم جدًّا، وإن المرأة كانت في الجماعات الابتدائية للرجل لا فرق بينها وبين العبد، حتى لقد ذكر لكوفه Legouvé أن أحد المجامع المقدسة في القرون الوسطى تناقش في هذا السؤال: هل للمرأة نفس أم ينفرد الرجل وحده بهذه الصفة الإلهية؟ وقد ساقهم إلى هذه المناقشة ما جاء في التوراة عن خلق المرأة من ضلع من أضلاع الرجل، وقول آدم: هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي، وعدم قوله إنها ذات نفس شبيهة بنفسه

وزعم آخرون أنه لا فرق بين الرجل والمرأة في الحس والعقل والإرادة، وأن الفرق بين الرجال أنفسهم أكثر من الفرق بينهم وبين النساء. فما قاله أفلاطون: لا فرق بين الرجال والنساء. يجب أن يكون عدد النساء في جيش الجمهورية مساوياً لعدد الرجال. ويجب عليهن أن يتعلمن استعمال السلاح وركوب الخيل. وينبغي لهن أن ينزعن ثيابهن لممارسة الرياضة البدنية وألا يخجلن من ذلك كله لأن أحسن ثوب يصون المرأة هو ثوب الفضيلة. ومما قاله كوندورسه: يجب أن يكون التعليم واحداً بالنسبة إلى الجنسين لأن المرأة مساوية للرجل. ومما قالته مدام (نكردوسوسور): إن البنات لا يختلفن عن الصبيان أبداً قبل العاشرة من السن

فالباحث عن حقيقة المرأة إما أن يكون مثل بوسويه الهازئ بزينة النساء وزهوهن فيقول لهن: لا تنسين يا سيداتي أنكن خلقتن من ضلع زائد من أضلاع آدم؛ وإما أن يكون مثل أفلاطون الخيالي فيتصور مدينة فاضلة قائمة على سواعد الرجال والنساء معاً. وهذه المباحث الأولية لا تكشف الغطاء عن حقيقة المرأة، بل هي على مثال ما ذكره سائر الأدباء أقوال خطابية لا توضح الأمر بل تزيده ظلاماً، حتى لقد قال (ريدرو) في ذلك: «إذا كتبت عن المرأة فاغمس ريشتك في قوس قزح ثم رش على أوراقك غبار أجنحة الفراشة، لأن المرأة هي موجود إلهي»

فلنرجع إلى علم النفس ولنسأل ما هي حقيقة المرأة ولندرس أحوالها النفسية على ضوء العلم الحديث

***

إن تحليل صفات النساء يكشف لنا عن أنواع مختلفة، ويمكننا إرجاع هذه الأنواع إلى أربعة:

١ — المرأة الطفل	٢ — المرأة الحساسة
٣ — المرأة الحساسة الذكية	٤ — المرأة المفكرة

ولنبحث في كل من هذه الأنواع على حدة:

١ — **المرأة الطفل**: إن هذا النوع من النساء مشتت الفكر والقلب معاً؛ فلا هو منظم الحكم، ولا هو ثابت الحس، بل يتبدل من صورة إلى أخرى بحسب الأهواء والعواطف. وقد وصفه (ديكنس) في روايته دوريت الصغيرة (La petite Dorit). ويبين العلماء أن له نوعين: المرضي والطبيعي. فالمرضي يعرف بشدة قبوله للتلقين، والطبيعي يشتمل على النساء الخفيفات العقل الكثيرات الزهو اللواتي يتنقلن كالطير من فنن إلى آخر؛ أو يشتمل على النساء الواسعات الخيال الكثيرات القلق والعظيمات الأمل؛ فإذا تكلمن مزجن الحقيقة بالخيال وأسرعن في التعبير عن أفكارهن أو تقدمت الألفاظ عندهن على الفكر. وقد يملن إلى الاطلاع ويرغبن في الكشف عن خوافي الأمور، إلا أن ميلهن هذا بعيد جدًّا عن

محبة العلم ، فهن يرغبن فى المعرفة لا للمعرفة نفسها بل لحاجة في نفوسهن تدفعهن إلى الحديث . وإذا رغبن فى شيء مجرداً عن المنفعة المباشرة رضين بالقليل منه واكتفين باليسير . قلت لطفل مرة : إذا أعطيتك ثلاث برتقالات وأخذت منها واحدة فكم يبقى معك منها ؟ فقال على الفور : كيف تقول لى إنك أعطيتنى ثلاث برتقالات وأنت حتى الآن لم تعطنى شيئاً ؟ فالمرأة الطفل لا تختلف عن هذا الطفل فى طلب العلم . إنها تفضل المحسوس على المجرد ، والقريب النفع على البعيد القصد . فهى إذن مثل هذا الطفل الذى لا يعرف الحساب إلا إذا تذوق حلاوة البرتقالة

٢ — المرأة الحساسة : يختلف هذا النوع عن الأول بشدة العاطفة وعمق الشعور وتغلب القلب على العقل . إن المرأة الحساسة لاتقيس الأشياء إلا بمقياس العاطفة ولا تزنها إلا بميزان الهوى . فكل ما وافق هوى من نفسها صحيح ، وكل ما أعرضت عنه فاسد . لقد جاء فى بعض روايات (جورج ساند) شيء من صفات هذه المرأة . إنها تنسى هواها القديم عند وقوعها فى الهوى الجديد ، ولا تهتم بوقوعها فى التناقض وانتقالها من ضد إلى آخر . نعم إن الرجل نفسه خاضع لمنطق العواطف ولكنه يحاول فى كل حال من أحواله أن يبرر عواطفه ويجعل هواه معقولا . مثال ذلك : أن (ألسست) Alceste يقول عن نفسه إنه لا يحب سيليمين Céliméne إلا ليرجع إليها الفضيلة المفقودة ، فهو إذن يجد لهواه سبباً معقولا . أما المرأة فلا تهتم بهذه الوساوس ولا تميل إلى سفسطة التشكك ، بل تعلن الأمر كما هو ؛ فاذا كرهت رجلاً كان قلبها وحده مبرراً لها فى كرهها ، وإذا أحبت شخصاً لم تبحث عن الأسباب الباعثة على تعلقها به ، بل تصغى إلى نداء قلبها من غير أن تجد حاجة لتحكيم العقل . إن هذا النوع من النساء شبيه بالنوع الأول فى خوفه من التجريد ، وعدم ميله إلى الحق . إن فكرة العدالة مفقودة عند هذين النوعين ، والنساء على الأغلب لا يملن الى العدالة المجردة ، بل يفضلن عليها عدالة القلب . من ذا الذى يستطيع أن يقنع الوالدة أن ابنها لا يستحق النجاح فى الفحص ؟ العدالة ضيقة النطاق ، وقلب المرأة أوسع من أن يتقيد بهذه الحدود الضيقة . قد تكون العواطف للعقل نوراً وللإرادة قوة ، وقد يبعث الهوى على التضحية الخالصة فيذهب إلى ما وراء العدالة ويكشف الحجاب عن ذخائر القلب فينشرها ويذيعها ولكنه كثيراً ما يشوش أحكام العقل فيملأها ظلاماً .

٣ — المرأة الحساسة الذكية : وقد تكون العاطفة مصحوبة بقوة من الذكاء خفية لا تخلو من الدقة وحدس الحياة ، فتربط المرأة عواطفها بأفكارها وتريد أن تتغلب بها على مشاكل الحياة . إن هذا النوع من النساء قوى الملاحظة والانتباه والذاكرة ، واسع الخيال شديد الحس ، إلا أن قوة الحكم عنده مشوبة بدخان العاطفة وسائق الغريزة . لذلك تجده قوى الشعور بالمنفعة كثير الميل إلى العمل . كالزوجة التى تشعر بالرابط الاجتماعى وتقدره حق قدره وتبدل بعواطفها المغوية بالفكرة الاجتماعية أوالخلقية أو الدينية ؛ وكالوالدة التى تدرك نظام الحياة فتتصور مثلا أعلى له ثم تهيىء أولادها للفوز فى هذا النظام الجديد ؛ فهى تشعر بمشاكل الحياة وتريد أن تتغلب عليها بقوة الذكاء والإرادة . فكم شاب لم يتطلع إلى المعالى إلا بتأثير والدته ! وكم رجل لم يقدم على المغامرات السياسية أو المالية إلا بدافع من زوجته ! وكثيراً ما تكون المرأة هى القوة المحركة والدماغ المفكر والعقل المدبر ، ويكون الرجل هو الآلة المتحركة والواسطة المبلغة .

٤ — المرأة المفكرة : إن هذا النوع الأخير أقرب إلى الاهتمام بالمباحث العلمية من الأنواع السابقة ، فهو محب للاطلاع ميال إلى المعرفة ؛ إلا أنه كثيراً ما يضطرب أمام إشراق الفكر ويعجز جسمه اللطيف عن تحمل أعباء البحث . والسبب فى ذلك أن النساء عشن حقباً طويلة تحت وصاية الرجال بعيدات عن الحرية والحياة ، فلا غرو إذا ترددن فى البحث وشعرن بالقلق فى فضاء الفكر . وبالرغم من ذلك فان البنات أكثر اتباعاً للنظام من الصبيان . وقلما تجد فتاة تفضل الكسل على الاجتهاد ، بل إن أكثر البنات يصغين إلى أساتذتهن ويكتبن الأمالى، ويحفظن دروسهن ؛ إلا أنهن لايزلن حتى الآن أقل جرأة فكرية من الصبيان ، لأنهن يعتمدن على الذاكرة أكثر مما يعتمدن على قوة الحكم .

وقد تبين لعلماء العصر أن استعداد المرأة للرياضيات قوى جداً وأن فى وسعها أن تتعود التفكير المجرد ، إلا أنها لا تزال قليلة الثقة بنفسها فلا تبحث إلا فى الأشياء العملية النافعة أو فى الأمور المحددة . ومع أن مدام بيير كورى قد توصلت فى العلوم التجريبية الى درجة عالية فإن تلميذات فرع العلوم فى الجامعات أقل ثقة بنفوسهن من التلاميذ ، لأن التجريب العلمى يحتاج الى جرأة وتنظيم ، وهذان الأمران لا يزالان حتى الآن بعيدين عن المرأة .

وبما يؤيد هذا أيضاً أن النساء اللواتى اشتهرن بالفلسفة (كهيباتيا) وغيرها لم يبدعن مذاهب جديدة بل إتبعن المذاهب القديمة وحللنها وهذبنها . فالمرأة أقرب الى الاتباع منها الى الابداع . وهى لا تقبل الحقائق المؤقتة ، بل تريد أن يكون كل شيء نهائياً فتسبغ على الحقائق العلمية حلة دينية وتقلب النسبي الى مطلق . إن تلاميذ الفلسفة يفضلون الكليات الفلسفية على الجزئيات ، فيضخمون الفكر البسيطة ويعممونها حتى تشمل الكون كله . أما تلميذات الفلسفة فيملن الى الجزئيات ويرغبن فى التحليل دون التركيب : فعقل المرأة عقل تحليلى ، أما عقل الرجل فعقل تركيبى . نعم إن المرأة واسعة الخيال ، ومن صفات الخيال الواسع أن ينشىء ويبدع ، إلا أن خيال المرأة يصلح لتبديل صور الأشياء وتغيير حقائقها لا لإنتاج الفرضيات المنظمة وإصلاح الواقع بها .

***

تلك هي أنواع النساء من الوجهة النفسية . فالمرأة الحساسة تصلح للشعر والموسيقى والتصوير والتمثيل ، والمرأة الحساسة الذكية تصلح للحياة العملية من تجارة وإدارة ، والمرأة المفكرة تصلح للعلم والفلسفة . وقد تمتزج هذه الصفات فتجتمع فى امرأة واحدة ، فيكون منها نوع معتدل صالح للقيام بجميع الأعمال .

وقد أخذت صفات المرأة تتبدل فى الهيأة الاجتماعية الحديثة لأنها قد شاركت الرجل فى جميع الأعمال من تجارة وصناعة وإدارة واقتصاد وسياسة ، فساقها التطور إلى استبدال كثير من صفاتها القديمة بصفات جديدة ، فاستبدلت بالحياء الجرأة ، وبالخشية الاقدام ، وبالسكون الحركة ، وبالسذاجة الحيلة ، وبالعبودية الحرية ، وبالعاطفة العقل . وأعتقد أن هذه الصفات الجديدة لا تفسد جمال المرأة بل تزيد سحرها قوة ، لأن العلم لا يجفف القلب بل يبدد ظلمات الغريزة ، وينير طرائق العقل ، ويكشف عن جمال الأشياء ، ويولد فى المرأة صفات نفسية مشابهة لصفات الرجل فى تفكيره وانفعاله وفعله ؛ ويقلب حياة المرأة الاتباعية الى حياة مفعمة بالحرية والإبداع . وما أدرى لعل التطور يكشف لنا فى المستقبل عن نوع جديد أكمل من هذه الأنواع الأربعة تتحد فيه العاطفة بالفكر والإرادة بالعقل . إن الأحلام ليست أقل تأثيراً فى التطور من اشتباك الأسباب الحقيقية واختلافها .

جميل صليبا

رئيس التعليم الثانوى بدمشق

من برجنا العاجي

رأيت فى نومى البارحة رؤيا أفزعتنى : رأيت أنى تزوجت . ولم تبين الرؤيا كيف تم ذلك ، ولكن وجدت نفسى على فُرُش وثيرة من الدمقس الأزرق فى حجرة جميلة ذات سجُف من حرير متألق متماوج الألوان كرقبة اليمامة . وسمعت حولى من يقول :

— هذا جهازها — جهاز من ؟ — عروسك

— ومن الذى زوجنى ؟ وممن العروس ؟

— من بيت حسب ونسب . ذات جمال ومال وحلاوة لسان . وهى فرصة كان لا بد من انتهازها . وقد علت بك السن وكاد يفوت أوان الزواج

— ومن انتهز لي هذه الفرصة ؟

— أولاد الحلال ، من قرائك المعجبين الذين يهتمون لأمرك

— شيء لطيف . وهؤلاء القراء المعجبون الذين زوجونى ، كيف فعلوا ذلك ؟ وأين وجدوا لي هذه العروس ..؟

— لا شأن لك بكل هذه التفاصيل . ولا تشغل بالك إلا بما أنت فيه من نعيم مقيم

— والعروس ؟ أسبق لى رؤيتها ؟ — لا . ستراها الليلة

— عجباً ! وكيف يزوجوننى ممن لم أرها ونحن فى القرن العشرين ؟ آه أيها الناس ! إن هذا جاوز الحدود ...

— هى أيضاً لم ترك — أقرأت كتبى ؟

— لو كانت قرأت كتبك لما تزوجتك

— وكيف إذن أقنعوها ؟

— قالوا لها عنك كل شيء إلا الأدب والتأليف . فقد وجدوا من الحكمة وأصالة الرأى كتمان ذلك عنها إلى أن يتم العقد ويتعذر النقض

وفتحت عينى فى الصباح وأنا أقول : « اللهم أحمدك على استيقاظى قبل تمام العقد ، وقبل مواجهة الفتاة بذلك العيب الذي لا يغتفر ! نعم ان المرأة لن تتغير . إن شئون الفكر عندها شيء مخيف وكم من شعراء وأدباء أخفوا على نسائهم كنوز عقولهم ولم يظهروا لهن إلا كما يردنهم : رجالاً متبذلين كنقبة الرحال ! »

توفيق الحكيم

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

– ١٤ –

نحن فى اليوم الرابع من أيام المؤتمر الطبي العربى الذى بثّ الابتهاج والانشراح فى أرجاء بغداد ، وأنا أمضى إلى مدرج كلية الطب لألقى محاضرتى عن المصطلحات الطبية فأجد اسمى فوق اللوحة آخر الأسماء ؛ وأتلفت فأرى فتاة من قريبات ليلى جاءت لتسمع محاضرتى فأحقد على منظم المنهج ، لأن هذه الفتاة قد تضجر فتنصرف قبل أن تسمع صوتى ، فأنتهز أقرب فرصة وأدخل فى مناقشة حامية مع الدكتور فؤاد غصن ؛ وينهزم الدكتور فؤاد غصن ، فتصفق تلك الفتاة . وما أسعد الخطيب الذى تصفق له فتاة بغدادية ساجية الطرف مصقولة الجبين !

رباه ! متى يُعقد المؤتمر الطبي مرة ثانية ولو فى الصين ؟!

ويقوم سعادة الأستاذ على الجارم بك فيلقى محاضرته فى صوت مطلول كأنداء الصباح

ثم يقوم فضيلة الشيخ السكندرى فيلقى محاضرة نفيسة جداً تضج لها الأرض وتطرب السماء ، ويصيح الدكتور القيسى : تحيا مصر ! تحيا مصر !

وأقبل عليه أشكره على التحية التى وجهها إلى مصر فيقول : كنت أظن الذكاء المصرى خرافة أذاعها المصريون . واليوم رأيت وتحققت أن المصريين أذكياء وعلماء ، وقد تبددت الصورة المشوهة التى ارتسمت فى ذهنى بسبب الجموح الذى شهدته فيمن عرفت من الطلبة المصريين في باريس

وأعتذر عن جموح شبابنا فأقول : لا تلم شبابنا على المرح والطرب ، فنحن شعب طال عهده بالهموم والأرزاء فهو يروح عن نفسه بتكلف السرور والارتياح . أما سمعت قول شاعركم الزهاوى فى مخاطبة أم كلثوم :

يا أم كلثوم إنـا أمةٌ رزحتْ   تحت المصائب أحقاباً فسلّينا

ويجئُ دورى فى الخطابة فأعتلى المنبر فى زهو وخيلاء . ثم يروعنى أن أرى الناس ينصرفون ، فأذكر أن الموعد حان للغداء فى مضارب بنى تميم ، وأن المستمعين الكرام يفهمون جيداً أن الغرق فى المرق أشهى وأطيب من بلاغة سحبان !

ويرى سعادة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك أنى متألم متوجع فيهمس فى أذنى أن المدرج لم تبق فيه فتاة واحدة. فأسأل: وكيف ؟ فيجيب بأن وعورة البحث الذى ألقاه الشيخ السكندرى أملّتْ جميع الفتيات فانصرفن عابسات . ويسرنى ألا تشهد فتاة هزيمتى فأقول : إلى الغد ، إلى الغد ، يا حضرات الزملاء !

وقبل أن أدخل فى تفاصيل ماسأراه ، أذكر أني زرت ليلى شفاها الله فى مساء ذلك اليوم فحدثتنى أن خطبة الشيخ السكندرى ملأت مسامع أهل بغداد ، ولكنها أنكرت أن يتحذلق الشيخ السكندرى فيقول :

إن الأوكسيجين مثنًّى أو كسيج ، وإنه يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء

فأصرخ فى وجه ليلى : هذا كذب ، هذا افتراء !

ثم أعرف بعد ذلك أن هذه دعابة ثقيلة أذاعها مصرى خبيث يقيم فى بغداد

ولم أنجح فى إقناع ليلى بأن هذا افتراء على الشيخ السكندرى إلا بعد أن هددتها بالغرق فى دجلة ، وليلى تحبنى يا بنى آدم ، فلا تستغربوا أن يهولها هذا التهديد

***

ثم أخرج للبحث عن سيارة تنقلنى إلى مضارب بني تميم ، فلا أجد غير سيارة بالأجرة ، فأتردد ، لأنى لم أدخر درهما واحداً فى بغداد ، فقد أنفقت مالى على المطابع ، وعند الله جزائى

وأهم بالزهد فى الوليمة التميمية فأسمع صوتاً يقول : سيارتى فى خدمتك يا دكتور زكي . فأنظر فاذا طبيب لا أعرف اسمه ، ولو عرفته لشرفت به هذه المذكرات ، فأقول : ولكن معى صديقان فضيلة الشيخ السكندرى والأستاذ عبد المنعم خلاف . فيقول : سيارتى فى خدمتكم جميعاً يا مولاى

وقبل أن أدخل فى التفاصيل أذكر أنى أعطف على عبد المنعم خلاف لسببين : أما السبب الأول فلا أذكره ، وهو يعرف ما أعنى . وأما السبب الثانى فهو أن الشقىّ يشغل نفسه منذ أشهر طوال بالبحث عن مصدر الوحى : الوحى الهائل الخطير الذى جعل الدكتور زكى مبارك يكتب ثلاث مقالات في كل يوم بالرغم من اشتغاله بالتدريس والتأليف . وسيموت الشقى قبل أن يعرف مصدر الوحى . وسيموت قبله مصريون آخرون يهمهم أن يعرفوا

كيف استطاع الدكتور زكي مبارك أن يكون أصدق من استرقَتْ بغداد

ونمضى فى السيارة على غير هدى فى صحبة الطبيب النبيل الذى ينقلنا إلى مضارب بنى تميم ؛ ثم نتلفت فجأة فنرى نحو عشرين سيارة تتعقبنا فنعرف أننا ضللنا مع أننا فى رحاب عقرقوف الذى خلّد اسمه أبو نواس فى رحلته إلى مصر ، مصر التى فيها الزمالك ومصر الجديدة وحلوان ، والتى تسدل ستائرها على الجدائل المعطرة التى تشمشت بعد رحيلى إلى العراق

رباه ! إنك تعلم أن الظلام فى مصر الجديدة أندى وأطيب من النور الوهاج ، فمتى ترجعنى إليه !

ونصل إلى مضارب بنى تميم فنرى أفواجاً من الفرسان ينتظروننا على طول الطريق وهم يحيوننا بأناشيد كلها رفق وحنان . وفى زحمة الاحتفال يجيء طبيب نبيل فيدعونى للتسليم على سيدتين كريمتين ، لا أذكر اسمهما تأدباً ، ولو شئت لقلت إنهما من النفحات الربانية ، وقد رحلت الأولى إلى القاهرة وبقيت الثانية فى بغداد . فإليهما أقدم تحيتى وثنائى ، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف . ويمد السماط ، أو السماطان ، أو الأسمطة ، كما يشاء كرم الشيخ حسن سهيل

ثم يشيع بين الجمهور أن رجلاً غرق فى المرق ، فيصيح الطفل الجميل الذى اسمه عمر : بابا ، بابا ، أحب أن أطمئن على الدكتور زكى مبارك . فيقول سعادة وزير مصر المفوض فى العراق : اطمئن يا بُنىّ ، فان الدكتور مبارك من كبار السابحين!

ويقف عميد بنى تميم ليخطب فيشتد التصفيق ؛ ويقف الشيخ السكندرى ليخطب فيشتد الهتاف ؛ ثم يقول صديق كريم بصوت جهورى : الدكتور زكى مبارك يلقى كلمة العراق ، فيتلفت وزير المعارف قائلا : ماذا ؟ ماذا ؟ فيجيب الصديق الكريم : الدكتور زكى مبارك يخطب باسم العراق : فيقول معالى الوزير : نعم ، نعم ، من حق الدكتور زكى مبارك أن يخطب باسم العراق

وألقى خطبة رنانة أشكر فيها إخوانى المصريين وأقول إن حياتى طابت فى العراق وإننى لا أحب الرجوع إلى مصر . فأرى دموع الشيخ السكندرى تتحدر وأسمعه يقول : وهل نسيت سنتريس ؟ !

فأقول بصوت صاخب : ونسيت سنتريس !

ومن واجبى أن أسجل فى هذه المذكرات أنى لم أر فى حياتى أياماً أطيب من أيام العراق . وسأظل من أنصار العراق فيما بقى من حياتي . حيّا الله العراق ، ونصر الله العراق !

* * *

أما بعد فنحن فى منتصف الساعة التاسعة من مساء ١٢ فبراير سنة ١٩٣٨ وهو مساء لم تشهد مثله بغداد منذ أجيال . وهذه سهرة فى بهو أمانة العاصمة أقامها الطبيب الشاب الدكتور شوكة الزهاوي . وهذا الدكتور زكى مبارك الملحد الفاجر فيما يزعمون ، يتلفت عن صاحبة العينين فلا يرى صاحبة العينين . ولكنه يرى الطبيب النبيل الذى سيقبل من أجله ثرى بغداد يوم يفارق بغداد ، فيستشير صديقه فيما يأتى وما يدع ، فيعرف أن السهرة تنقسم إلى قسمين : قسم عربى وقسم أفرنجى ، فأقول : النبي عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى

وأمضى إلى القسم العربى فأجد الوزراء جميعاً وعلى رأسهم فخامة الرئيس . وأخرج عن وقارى فأمضى إلى رئيس الوزراء وأقول : سيدى ، أتسمح بأن أسجل فى مذكراتى أن إيثارك الجلوس فى المرقص العربى هو فى ذاته تزكية نبيلة للثقافة الذوقية فى حياة العروبة ؟ فيبتسم ابتسامة القبول

وأعود إلى مكانى وأجمل قلبى كله للمرقص ، وما هو فى الحقيقة بمرقص ، ولكنه مَغْنى كما يعبر المصريون . وأنظر فإذا فتاة مليحةٌ جداً تجلس بين القيان وعليها سيما الدَّل ، فيزعجنى أن تعجز عيونها الساحرة عن الاستبداد بألباب الناس ، فأنظر إليها بترفق وأرفع الكأس ، فتنظر بحنان وترفع الكأس ، ولا يكفيني ذلك ، بل أصنع الصنيع نفسه مع سائر القيان ؛ ويتقدم رجل لم تذهب الكأس بوقاره فيقول : يا دكتور مبارك ، إن مكانك قريب جداً من فخامة رئيس الوزراء ولعله يتأذى من مداعبة القيان ، وأنا أرى أن ما تصنع لا يليق بمقامك

فقلت فى عبارة صريحة : إن ما أصنع هو الذى يليق بمقامى

فتلثم الرجل وقال : لطفاً يا سيدى ، لطفاً ! ولكن هل أستطيع أن أعرف جوهر رأيك فى هذه القضية ؟

فقلت وأنا أجدّ كل الجدّ : لستُ يا سيدى بفاجر ولا أثيم وإنما أنا رجل مؤمن ، ومن واجب المؤمن أن يتوجع لآلام المنكوبين ، وهؤلاء المغنيات والراقصات يعانين أبشع نكبة قاسَتها الإنسانية ، فهنّ مسئولات عن الوصول إلى قلوب الناس . ويا ويل مَن يحكم عليه الزمن بأن يكون من صنعته أن يُرضي الناس ؛ والناس ياسيدى يغلب عليهم اللؤم فلا يقابلون من يخطب

رضاهم بغير الجحود ، فهل يسوؤك وأنت عراقى كريم أن أكون من الكرماء ؟ هل يسوؤك أن أدخل السرور على قلب فتاة بائسة قضى عليها الزمن الجائر بأن تطلب رضاى ورضاك ؟

فهدأ الرجل قليلاً ثم قال : وما رأيك فى هذا ؟

فقلت : وما هذا ؟

فقال : أما رأيت الراقصة ترفع الثوب عن فخذيها في وقاحة وسفاهة ؟

فقلت : نعم رأيت ، ثم رأيت ؛ ولكن من الملوم ؟ إن الراقصات يعرفن أن فينا الغوىّ والسفيه والمجرم ، فهن يتقربن إلينا بتزيين الرجس والدعارة والفحش . ولو كنّ يعرفن أننا جميعاً نغار على الكرامة لما جاز لإحداهن أن تكشف عن قدم أو ساق

ويقوم المغنى المطرب محمد القومباجى فينشد :

أأحبابنا قد فرّق الدهر بيننا

فأصيح : قد جمّع الدهر بيننا

فيعرف أنه لم يراع المقام ثم تكون أغانيه بعد ذلك ضرباً من الارتجال

وأنتقل من مكانى لأرى كيف تموج الدنيا فى المرقص الأفرنجى فأعثر على الراقصة التى كنت أداعبها بالكأس منذ لحظات ، وأحييها فلا تردّ التحية ، كأنها ظنت أننى كنت فى مداعبتها من الماجنين

إننى أفهم حالك أيتها الصبية المسكينة ، ويسرنى أن أراك تتمنعين فالناس كلهم وحوش . ولا أستثنى نفسى فلتحذرى وليحذر أمثالك من حسن الظن بالناس

طوّفت بالمرقص الأفرنجى لحظات لأرى صاحبة العينين ، ولم أجدها فأين ذهبت ؟ أين ذهبت ؟ دلونى فقد عيل صبرى . وفوق أى مخدّة نام ذلك الخد الأسيل ؟ يرحمك الحبُّ يا قلبى !

***

تحيا انجلترا ! !

كذلك قلتُ ، فدهش السامرون

تحيا بريطانيا ! !

كذلك قلتُ ، فتعجب السامرون

تحيا بريطانيا العظمى ! !

كذلك قلتُ ، فضجّ السامرون

ومالىَ من ذنبٍ إليهم علمتهُ سوى أننى قد قلت يا سرحة اسلمي
نعم فاسلمى ثم اسلمي ثمت اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلمى

لقد كنت من أعضاء الحزب الوطنى ، وكنت من أوفى الناس لمبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش . وكنت أذيع مبادئ الحزب الوطنى بلباقة فى الجرائد الوفدية ، وكان الوفديون يعرفون صدق وإخلاصى ونزاهتى فيتسامحون ويدعوننى أذيع فى جرائدهم ما أشاء . ولما أمضيت معاهدة التحالف بين انجلترا وبين مصر قررت أن أؤلف كتاباً أدعو فيه المصريين إلى أن يتذكروا دائماً أن انجلترا كانت غزت مصر ورزأتها بالاحتلال

فما الذى جدّ فى أفق السياسة حتى أهتف بحياة انجلترا فى بغداد؟

ما الذى جدّ حتى يتغير زكى مبارك الذى أضاع نفسه في مصر بفضل حرصه على مبادئه الوطنية وانعزاله عن الأحزاب التى تملك مصاير الأمور فى أكثر الشؤون ؟

فقد كنت ألمح من بُعد فتاة تسارقنى النظر بعينين زرقاوين ، وكنت لا أملك الانتقال إليها ولا تملك الانتقال إلىّ ؛ وكان جارى رجلاً ظريفاً كسائر البغداديين ، فترك مقعده عمداً لأستطيع دعوة الفتاة إلى جواري . ولم تنتظر الفتاة الدعوة ، فما هى إلا لمحة طرف حتى كان وجهها إلى وجهى ، وكلمتنى بالانجليزية فلم أفهم ، فاستوضحتها بالفرنسية فلم تفهم ، فقالت بلسان عربى ملحون ما معناه : أرجوك أن تطلب من سليمه باشا أن تغنّى :

على بلد المحبوب ودّينى

ودار الصوت على الحاضرين ويدها فى يدى ، وعينها فى عينى ؛ وتلطف الكرام الكاتبون فلم يسجلوا غير الجميل

وبعد لحظات همّت الفتاة بالانصراف ، فجذبتُ يدها أقبلها فسمحت بعد تمنع واستحياء

ولم يكُ غير موقفنا فطارتْ بكل قبيلةٍ منا نَواها
فواهاً كيف تجمعنا الليالى وآهاً من تفرقنا وآها

***

ثم يجئُ اليوم الخامس فألقى محاضرتي فى كلية الطب ، وأعربد على الدكتور عبد الواحد الوكيل وعلى الأطباء المصريين ، وأزعم أن أساتذة الطب فى مصر من أكسل الناس ، ولولا ذلك لنقلوا علوم الطب إلى اللغة العربية . ويصفق الحاضرون ، ويقبل الجارم لتهنئتي فأقول : أنا تلميذك . فيقول : لقد بذذت أساتذتك .

ويجئُ المساء فأذهب إلى الحفلة التى تقيمها الجمعية الطبية المصرية ، فأراها وا أسفاه حفلة مصرية حقاً وصدقاً ، فلا شراب

ولا رقص ولا غناء ، فأقول فى نفسى فضحتمونا يا ناس !

ولكن الدكتور عبد الواحد الوكيل ينقذ الموقف فيلقى خطبة يقول فيها إن الجمعية الطبية المصرية عرفت أنها تعجز عن إقامة حفلة كالتى أقامها معالى أمين العاصمة ، أو حفلة كالتى أقامها سعادة رئيس الجمعية الطبية العراقية ، فقررت أن تقيم حفلة ترقص فيها الخطب ويغنى فيها البيان

الله أكبر ! الله أكبر !

وكذلك قضينا ثلاث ساعات فى سماع الخطب والقصائد ، ثلاث ساعات قضيتها فى كرب ، لولا الخطبة الظريفة التى ألقاها سعادة العشماوى بك ، ولولا الوجه الأصبح الذى كنت أتعزى بالنظر إليه

***

ويجئ اليوم السادس وهو رحلة إلى السدة الهندية وأطلال بابل

وأصل إلى القطار فى آخر ثانية ، فقد كنت فى شواغل غرامية عاقتنى عن مراعاة الموعد ؛ ولكن حظى كان سعيداً ، ولا أذكر كيف ، فقد تتأذى بذلك بعض الوجوه الصباح . ويمر القطار على قرية اسمها الاسكندريه فأقول : لعل هذه هى البلدة التى ينسب إليها أبو الفتح الأسكندرى الذى يروى عنه عيسى ابن هشام فى مقامات بديع الزمان ؛ وأملأ عينى من نخيلها وأكواخها لأكتب عنها كلمة فى الطبعة الثانية من كتاب (النثر الفنى)

ثم يقذفنا القطار إلى السدة الهندية ، وليتنا غرقنا هناك !

والسدة الهندية قنطرة ظريفة على الفرات ؛ وللفرات فيها هدير جذاب يذكر بهدير النيل على الرياح المنوفى بالقناطر الخيرية . وقد وقفت على السدة الهندية لحظات ظفرت فيها بموعد سأنعم به يوم أعود إلى وطنى ، إن كان لى إلى أرض الوطن معاد

لا تحزن يا قلبى ، فليست هذه أول غربة ، فقد كنت غريباً فى كل أرض حتى فى سنتريس !

لا تحزن يا قلبى ، فأقرب الناس إلى الله هم الغرباء ، لأن الغريب يؤدى امتحاناً فى كل لحظة ، وتدرسه العيون فى كل مكان ، ويؤدى حساباً إلى كل مخلوق ، ويعجز عن إصلاح ما يفسد المفترون

لا تحزن يا قلبى ، فكل غيم يتلوه صحو ، وكل ليل يعقبه صباح . لا تحزن يا قلبى ، فأنا بجانبك أرعاك وأواسيك ، وسأكفنك بدموعى إن قضى الله أن تموت غريباً بين القلوب

لا تحزن يا قلبى ، لا تحزن يا قلبى !

ما هذا ؟ ما هذا ؟

أتريد أن تفر من قفص الضلوع ؟

والى أين ؟ حدثنى الى أين ؟ الى أين يا جاهل ؟ فأنت تجمح الى قلوب عرفت من بعدك كيف يحلو اللهو ، وكيف تقرع الكأس بالكأس ، وكيف تطيب الأسمار والأحاديث . الى أين ؟ حدثنى الى أين ؟ وهل لك وطن أيها القلب ؟

حدثنى أين وطنك فقد نسيت ! أيكون وطنك بين تلك القلوب الغوادر التى تضن عليك بخطاب تكاليفه عشرة فلوس ؟ أيكون وطنك عند تلك الإنسانة الغادرة التى قطعت حبل الود لأنى دعوتها لزيارتك متنكرة فى بغداد ؟

أين وطنك يا قلبى ؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضى معك اليه . أهو مصر ؟ كذبت ، ثم كذبت ، فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق ، ولكنك فى مصر منبوذ مجهول

قلبى ! قلبى ! رحمة الله عليك ، فقد سعد ناس بالرفق المزيف ، وشقيت أنت بالرفق الصحيح

وقد وصل ناس لأنهم كذبوا ، وتخلفت أنت لأنك صدقت .

ونعم ناس لأنهم خانوا ، وشقيت أنت لأنك وفيت

وتقدم ناس لأنهم هزلوا ، وتأخرت أنت لأنك جددت .

وانتفع ناس لأنهم غدروا ، وخسرت أنت لأنك وفيت

قلبى ! قلبى ! أحسن الله إليك !

أنظر يا جاحد ! فها نحن أولاء فى رحاب أسد بابل ؛ وهذه صاحبة العينين . نعم هذه صاحبة العينين ، أما ترى يا قلبى ؟ أما ترى يا جاهل أن صاحبة العينين تنحى زوجها بعنف لتظهر فى الصورة بجانبك ؟ اعترف يا جاهل بأن الله رعاك حين كتب أن تظهر فى صورة عالية فى رحاب أسد بابل وفى جوار صاحبة العينين . اعترف يا جاهل بأنك كنت فى إحدى لحظاتك أسعد القلوب

مولاتى صاحبة العينين :

أعترف بأنى آذيتك ببعض الإيذاء ، أو كل الإيذاء ؛ ولكن الشاعر مغفور الذنوب ، لو تعلمين ؛ وقد قرأ الناس مذكراتى

فى مجلة الرسالة فعرفوا من أنتِ . فهل أطمع يوماً فى أن تعرفى من أنا ؟ وهل يعرف زوجك المفضال أننى شاعر لا يهمه غير أنس الروح بالروح ؟

المهم عندى يا مولاتى أن يعرف أبناء العروبة أن الجمال غير مقصور على من أنجبتْ لنـدن وباريس وبرلين ، وأن فى بغداد ودمشق وبيروت ومكة والمدينة وصنعاء والقاهرة والاسكندرية والمنصورة ودمياط وتونس ومراكش والقدس وما شاء الهوى من الحواضر العربية أرواحاً فيها جمال وصفاء

مولاتى صاحبة العينين :

لست بالرجل الفاجر ، كما يزعم المرجفون ، وإنما أنا رجل شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبِّب العرب فى بلادهم بالاشادة بما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق

فهل أستطيع أن أمرّ على بلدكم الجميل فى طريقى الى مصر ، مصر التى فيها الزمالك وحلوان ؟ مصر التى فيها شارع فؤاد ، والتى فيها الزيات ومحمد الهراوى ومحمد عبد الوهاب ومدحت عاصم والمخلوق السخيف الذى اسمه عبـد الله حبيب ؟ مصر التى فيها أحمد فريد رفاعى وطه حسين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولى وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين ؟ مصر التى فيها المكتبة التجارية والجامعة المصرية ؟ مصر التي فيها هوى القلب وشفاء الفؤاد ؟

مولاتى صاحبة العينين :

أنا أشرف من العصابة التى حرستْك منى ، فاسمحى لى بتقبيل قدميك قبل أن أموت ، ولـكن ... ولـكن ...

ولـكن أينسينى حديث العينين وصاحبة العينين ما شهدت يوم زيارة القوة الجوية العراقية ؟

إن تلك الزيارة تمثل روح العصر أصدق تمثيل ، فقد كان المفروض أن يحلق فى الجو بعض أعضاء المؤتمر الطبى ، وكان المظنون ألا تظهر هـذه الرغبة إلا عند عدد قليل من الأعضاء

ثم ظهر أن الناس كلهم يريدون امتطاء الطيارات حتى خشينا ألا يمر ذلك اليوم بسلام

وما كان يهمنى أن أشترك فى هذه النزهة فقد عرفت أمثالها من قبل وسجلتها فى كتاب ذكريات باريس ، ولـكني رجوت أن يكون هذا الزحام فرصة أداعب فيها فتاة أو فتاتين أو ثلاث فتيات ، ثم هالنى ألا أرى غير جماعات من « الخناشير » كلهم شُعثٌ غُبرٌ كأنهم قدموا من البيداء ، ومزاحمة هؤلاء ضرب من الضياع

ومع ذلك صممت على الاشتراك فى هذه النزهة ، ولـكنى لم أفلح ، فما كانت طيارة تنزل حتى يهجم عليها الناس كالوحوش

ورجعت أتعثر في أذيال الخيبة فما كدت أصل إلى باب المطار حتى سمعت رجلا يقول :

— أتريد أن تطير يا دكتور ؟

— نعم ، يا سيدى ، أحب أن أطير !

فدعانى إلى سيارته فركبت ومضينا الى ناحية قصيّة فطلب طيارة وقال : « هذه فى خدمتك فادع الى مصاحبتك من تشاء »

فنظرت فإذا سيدة « تائهة » فأخذتها معى وطرت

وعند النزول رأيت السيارة وصاحبها فى انتظارى فركبت معه الى المقصف وأجلسنى مع جماعة من الضباط ، ثم قال بعد تناول الشاى والحلوى والفاكهة : « خذ حريتك يا دكتور وطوّف حيث شئت »

فلما تركته كان أكبر همى أن أعرف من هو ، فسألت فعرفت أنه سعادة أمير اللواء حسين فوزى باشا رئيس أركان الجيش

ومع هذا يعجب ناس حين يروننى أطيل القول فى الثناء على العراق وأهل العراق

***

انتهت أيام المؤتمر ، سقاها الغيث ، ولـكن جدّ ما لم يكن فى الحسبان ، فقد أذاع رئيس الجمعية الطبية العراقية أن البصرة هى المدينة التى وُلدت فيها ليلى المريضـة فى العراق . وكنت خليقاً بأن أعرف ذلك من قبل ، ولـكن ليلى لم تحدثنى عن وطنها الأول ، ولم أسأل عنه ظمياء ، فرأيت الفرصة سانحة لأن أمضى مع أعضاء المؤتمر لرؤية الثرى المندى بالعطر والريحان ، الثرى الطاهر الذى عرف النعيم يوم كان يتخطر فوقه ذلك القد الرشيق

إلى وطنك ياليلاى ، الى البصرة ، الى النخيل ، الى شط العرب الذى تحترب فى سبيله أمم وشعوب ، الى وطن الجاحظ ، الى وطن المبرد ، إلى وطن مولاى الحسن البصرى أمتطى القطار فى ظلام الليل

« للحديث شجون » زكى مبارك

قضية اللغة العربية

للأستاذ أحمد خاكى

١ — التقدم واللغة : يذهب الجمهرة من المربين فى العصر الحديث الى أن الغاية من التربية ينبغى أن ترمى إلى تدريب الطفل على أكثر أنواع المهارة التى تتطلبها حياته الحاضرة والمستقبلة ، والتى تقتضيها الحضارة وطلب الرزق . بل لقد آمن الكثير منهم بأن الحضارة فى نفسها تقوم على المهارة فحسب ، وأن العصر الحالى يمتاز فيما يمتاز به بتلك الوجهة الآلية التى تلزمنا بها حاجات الحياة ، وأن التقدم رهين بما تحسنه الجماعة من أنواع المهارة ، وأننا لن نبلغ المثل الأعلى الذى يحدونا الى التقدم حتى نتقن أكبر عدد منها

ويذهب أصحاب اللغات الى هذا الرأى فيما يتصل بتعليمها . فقد أمّن هؤلاء على كل ذلك وزادوا عليه أن تعليم اللغات هو فى نفسه ضرب من ضروب المهارة التى يجب أن يكسبها المتعلم حتى يوفق بين نفسه وبين البيئة التى يعيش فيها . بل هو لا بد مرغم على كسبها اذا هو تطلع الى لون من ألوان الحياة أزهى من ذلك الذى اعتاده آباؤه وأجداده . فاللغة عند هؤلاء شبيهة بالمشى أو الجرى أو تناول الطعام أو احسان الرماية أو الطيران . فهى لا محيص للناشىء من أن يتلقنها فى بيئته ، بل هو مجبول على تلقنها ما دام يرى أن حياته تقوم على الاجتماع بسائر الأفراد ، وأن اتصاله الفكرى مع من حوله لا يستقيم الا اذا تلقن لغتهم كتابة وقراءة وحديثاً . واللغة فوق ذلك مهارة سامية جديرة بالإحسان لأنها تتحمل فى أطوائها تراث المدنيات التى تحدرت الينا ، ولأنها — اذا كانت أجنبية — مفتاح لمدنيات أخرى تغلغلت فى تاريخ البشرية نفسه

واللغة بعد ذلك دليل على التقدم الفكرى لأنها الوسيط الذى تتجسد فيه الأفكار والآراء . وليست اللغة من ذلك الوجه إلا رموزاً أطلقت على المعانى التى تتدفع فى نفس الإنسان . وهي التى تسيطر على موارد تلك المعانى ومصادرها . فكل كسب لتلك المهارة التى نسميها « اللغة » انما هو تحديد لغذائنا الفكرى . وكل تحديد لتفكيرنا انما هو فتح جديد للمنطق والفلسفة بل فتح لسائر العلوم

فاذا كانت اللغة تفيض بالمفردات التى تصف كل فكرة دقيقة من تلك الأفكار ، وإذا كانت ألفاظها قد تطورت مع الحضارة حتى كانت كفيلة بأن تصف المعانى التى تنثال فى خواطر المتحضرين ، كان ذلك دليلاً على كفايتها فى مسايرة التقدم العقلى . وليست قضية اللغة عندنا قضية ألفاظ فحسب ، ولا هى قضية تراكيب ، إنما القضية عندنا فى كفاية تلك الألفاظ وهذه التراكيب . فهل استطاعت هذه أن تساير الحضارة الحديثة ؟ وهل استطاعت أن تنقل معانيها إلينا ؟ ذلك ما نشك فيه

ونحن نشك فى شيء آخر غير ذلك . إنه لا يمكن لغة أن تساير الحضارة أو الثقافة إلا إذا كانت مرنة تتسع لكل معنى حديث . وتلك المرونة التى تظهر بجلاء فى لغة كالانجليزية قد فقدت مكانها فى لغة كالعربية . وهى قد فقدت مكانها فى لغات أخرى قبل لغتنا لأنها قعدت عن أن تماشى الحضارة فى تقدمها . وأخص ما تمتاز به الانجليزية هو ذلك الاستيعاب الذى يظهر في كل وجه من وجوهها ؛ فهى قد استوعبت ألفاظاً من كل قطر حلت فيه فئة من الانجليز . وألفاظها تواتى المتحدث بها فى كل موضوع يطرق ، لكننا نتشكك كثيراً فيما إذا كانت العربية والانجليزية سواء . فالعربية غير مرنة ؛ وهى لغة تقليدية تتولى عن الألفاظ الدخيلة ؛ وقد بدأت تساير الحضارة الحديثة منذ وقت قليل لما يكف لتغذيتها بألفاظ تطلق على المعانى التى تتجدد فى كل ساعة من ساعات الحضارة

لم يكن لنا أن نذكر كل ذلك لولا أننا نؤمن بأن فى اللغة استعداداً لقبول كثير من الإصلاح . ولعل أفعل إصلاح اللغة أن نبدأ بتفهم طرق التدريس التى من شأنها أن تجعل اللغة لغة أفكار ومعان قبل أن تكون لغة ألفاظ ومفردات ، وتفهم طرق التربية التى تكسبها مرونة اللغات الأخرى . ويستطيع المعلمون أن يتغلبوا على تلك العقبات التى يلقونها اذا هم وجدوا أمة من أهل الرأى تجاهد معهم فى هذا السبيل . على أننا سوف نكتفى فى مقالنا هذا بذكر وجه آخر من علاقة اللغات ، ثم بتحديد أغراضنا من دراستها . وسوف نعالج فى مقال آخر الوسائل التى نراها

٢ — وحدة اللغة : وفى كل الذى أسلفنا أكثر من دليل على أن عنايتنا باللغة ينبغى أن تحل عندنا المكانة الأولى بين مختلف

المواد التى نعلمها . فهى حقيقة بالتقدير إذا تحدثنا عن أى مثل أعلى عالى ؛ وفى دراستها توحيد للمعنى السامى الذى ما زال يلعب بخيال الانسانية ، والتقدم الفكرى رهين بالتقدم اللغوى ، ولأن اللغة أساس صالح لتلك المواد ، ولأنها تتحكم فى تلقينها وفى تلقنها ، فانا نرى أن إصلاح التعليم فى مصر رهين باصلاح أساليبنا فى تعليم اللغة العربية وفى تغيير وجهتنا فيما يختص بالأغراض التى نرمى إليها

بل اللغة العربية متصلة وثيق الاتصال باللغات الأجنبية التى نعلمها اتصالها بتعليم المواد الأخرى . وإذا نحن نظرنا إلى تلك المواد نظرتنا إلى مجموعات متوافقة من الأفكار والمعانى استطعنا أن نرى كيف تحدد اللغة تفكيرنا ، وكيف تواتينا المقدرة على تفهم تلك المواد إذا كانت اللغة مهارة مكسوبة أحسناها . فاللغة فى مفرداتها وصيغها تكوّن وحدة عامة متصلة الحلقات مشتبكة الأطراف ، وهى فى نفسها نتيجة لنماء العقل ونشاط التفكير . وليست مفردات اللغة كما قدمنا إلا رموزاً للأفكار التى يلتف بعضها حول بعض فى حياة الانسان العقلية ، والتى تتألف حولها كثير من شعاب الدواعى . وحين يدرج الناشئ فى السنين الأولى من طفولته يكسب كثيراً من تلك الأفكار التى يحاول أن يعبر عنها ، فما تزال حائرة تتردد فى نفسه حتى تستقر فى تلك الرموز التى تواضع عليها الناس ، وتصبح بعد ذلك مادة للحديث والتفكير والكتابة ، وتصبح سبيلا إلى تفهم التاريخ والجغرافية والطبيعة وغير ذلك

ولعل الطفل فى حياته اللغوية يمثل الانسان الأول فى كسب اللغة واصطناع ألفاظها ، فهو يتدرج فى تعلمها من المحسوسات الى المعقولات ، وهو يحسن كل الاحسان أسماء المرئيات ، لكنه يعانى غير قليل من الجهد فى تفهم المعانى . وقد مر الانسان الأول فى مثل عصر الطفولة حينما كان العالم نفسه طفلا ، وحين دفعته الحاجة الى أن يتعلم الأسماء كلها . وتعقدت اللغة فى أطوار الانسانية حتى انحدرت الينا وهى على ما هى عليه من التعمق والاغراق ؛ وحتى أصبحت دراستها تقتضى نصيباً كبيراً من الحس المرهف والتفطن الدقيق

فلغة الإنسان إذن وحدة فى ذاتها تتألف من شتات من الجزئيات ، ولغته الأصلية هى التى صاحبت تكوينه العقلى . منها يستمد أفكاره ومنها يكون صوره العقلية ، بل هى التى توحى إليه ما توحيه الكلمات من حب وبغض وسرور وحزن . ففى ألفاظها كل المعانى التى تجيش بصدره ، وفى أعطافها مايحرك قلبه ويهز فؤاده

ولأن اللغة وحدة فى ذاتها نجد بين لغة الإنسان الأصيلة وبين لغته الدخيلة أو الأجنبية كثيراً من الوشائج والأسباب ، فلا يستطيع متحدث أن يعالج الكلام عن الثانية إلا إذا بدأ بالأولى ، ولا يستطيع متعلم أن يقرب لغة أجنبية حتى يتخذ الأصيلة عوناً على تفهمها . فاللغة الأصيلة هى السجل الذى تنتظر فيه مراحل تفكيره ، وهى المرآة التى تنعكس عليها حياته العقلية والحسية فى وقت معاً

من أجل ذلك كانت اللغة الدخيلة عالة فى أفكارها ومعانيها على اللغة الأصيلة ، وكان حرياً بها أن تكون كذلك عند الناشئين ؛ فالحق أن الأفكار والمعانى لا تعرف ألفاظاً تحدها فى موضع ضيق تتقيد به ؛ ولأن اللغة الأصيلة نتيجة لتفكير الإنسان ، ولأنها ثمرة لتقدمه العقلى كانت خليقة أن تكون أساساً لتعليم اللغة الأجنبية كما كانت الأساس فى الدراسات الأخرى ، وخليقة أن تمتاز بالجلاء والوضوح ، وأن يعنى بها المربون أول شىء لأنها تتدخل فى تعلم اللغات الأخرى وفى إحسان العلوم ، بل فى نمو الإنسان وتفكيره

ولقد ذهب الى هذا الرأى كثير من الذين بحثوا دراسة اللغة وأخرجوه للناس كما لو كان كشفاً من كشوف العلم الحديث ، وكانت الجمهرة من علماء التربية يرون منذ بضع سنين أن اللغات منفصلة ، وأن الإنجليزية مثلاً لا تستقيم إلا إذا حبسنا تفكير الناشئ عن العربية فى دروس الإنجليزية . وقد كان يشوب ذلك كثير من الخطأ ، فلم يكن يعترف عقل المتعلم بتلك الحدود المفروضة التى ضربت عليه ، وقد كان يخترق تلك الحدود ، وكانت اللغة العربية تلتقى بالإنجليزية فى تفكير الطفل مهما حاولنا المباعدة بينهما . وقام فى السنين الأخيرة علماء مثل الدكتور (وِسْت) صاحب الطريقة المشهورة يعترفون بتلك الصلة ويستعينون بها فى تعليم الانجليزية . وحدث على أثر ذلك انقلاب سريع فى أساليب التعليم عندنا ، وغدا للعربية وزن فى تعليم الانجليزية فى الست السنوات الدراسية الأولى

وعندنا أن موطن الإصلاح الأول هو اللغة العربية . وإصلاح مثل ذلك لن يتناول طرائق التعليم ، ولا أساليب الدراسة فحسب

بل لا بد له أن يتأصل في مادة التفكير التي يتغذى بها التلاميذ. إصلاح مثل هذا سوف تتأثر به الجغرافية والتاريخ والكيمياء والفلسفة والمنطق، وكذلك سوف تستقيم به طرق التدريس التي نجاهد في إدخالها على اللغة الانجليزية. ولعلنا لا نغلو كثيراً إذا قلنا إنه أساس كل إصلاح آخر

٣ — الأغراض من تعليم اللغات: ولأن يكون كلامنا محدداً، ولئلا نخلط بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة، نرى أن نعالج الغرض الذي ينبغي أن نلتزمه في تعلم اللغة العربية والغرض الذي ينبغي أن نلتزمه في تعلم اللغة الانجليزية

فإذا كان بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة مثل تلك الصلات الفكرية، فإن بين الاثنتين فروقاً تحدد السبل التي نتخذها في تعليم كل منهما. فللغة كما قدمنا آثار تختلف على حياة الإنسان لها أثر عقلي عميق يكاد يحكم نمو إدراكه وتطور تفكيره. ولها بعد ذلك أثر حسي يتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الجمال التي يكسبها من الشعر والأدب. ثم إن لها أثراً عملياً أو نفعياً يغير منه في حياته كأي مهارة أخرى. وهذه الأنواع الثلاثة من الآثار هي التي تختلف على متعلم اللغة إذا أحسنت تنشئته على الأصول النفسية التي جهد في استنتاجها الذين أوتوا العلم من المعلمين والمربين.

ونحن في حديثنا عن اللغات يجب أن نفرق بين هذه الآثار وارتباطها باللغة العربية أو باللغة الأجنبية. أما اللغة العربية فإنه يتمثل فيها كل الآثار التي ذكرنا. لها أثر عقلي يصاحب الإنسان عند النشأة الأولى ويلازمه في كل طور من أطوار حياته، ولها كذلك أثر حسي يمحضه الشعور بالجمال ويفيض عليه كثيراً من ألوان السرور، ولها أثر ثالث عملي لأنها وسيلة الكتابة والحديث بين الأفراد والجماعات. أما أثر اللغة الأجنبية عندنا فهو نفعي أو قل عملي. حقاً قد يكون لها أثر عقلي إذ تتدخل في تربية الانسان ونمائه، وقد يكون لها أثر حسي إذا أحسن تعلمها. ولكن وجهها النفعي أوضح وجوهها، وانما يتعلم المرء اللغة الأجنبية لتكون صلة بينه وبين فروع المعرفة التي اتسعت لها، وحسبه أن يحسن قراءتها. ولعلها تصبح مادة زاخرة توحي اليه العواطف، وربما أصبح بينها وبين تفكيره صلات ولكنها على الحالين لن تدرك ما تبلغه لغته الأولى التي درج عليها والتي كانت أقرب الى عقله وقلبه ووجدانه.

فاللغة الأصيلة واللغة الدخيلة تختلفان في تقديرنا اختلافاً شاسعاً. الأولى صاحبة الأثر العقلي الذي يدفع بتفكير المتعلم الى نواحي التقدم، والثانية تستمد وجودها كأداة للتفكير من اللغة الأولى. واللغة الأصيلة ذخيرة تتجلى فيها آيات الجمال بما في تراثها من أدب وحكمة، وتنبلج فيها بدائع الشعر بما تتحمله من وحي وإلهام. أما الثانية فلن تبلغ هذا الأثر الا اذا أحسنها المتعلم كل الاحسان؛ وليس يبلغ ذلك الا الخاصة الذين لا يقمون للمعلم في حسبان. وهي عند كافة المتعلمين بعيدة عن نطاق الجمال والالهام غير قريبة من مواطن التفكير الدقيق أو جادة التفطن والتفصيل. واللغة الأصيلة واللغة الدخيلة بعد كل ذلك جديرتان أن نحسنهما قراءة ومطالعة، لأن احسان قراءة الأولى واجب حتم، ولأن قراءة الثانية هو سبيل الاتصال بحضارة أصحابها.

وفيما أسلفنا من حديث عن آثار اللغات مواضع نتعرف منها الغاية من تعلم اللغات كل منها على حدة، فالمطالعة أو قل القراءة المستوعبة هي الغاية من تعلم اللغة الأجنبية، لأن إتقانها هو السبيل الى فهم ما يكتب فيها، ولأننا في تعليمنا اللغة الأجنبية نرمي الى أن نفتح للمتعلم أبواب تلك اللغة حتى يتصل بثقافتها. نحن نتعلم اللغة الانجليزية لنقرأ مؤلفاتها، ونحن نحسن الفرنسية لكي نلم بحضارة الفرنسيين؛ وليست الفرنسية ولا الانجليزية إحداها ولا كلتاها بضرورة لازمة لحياتنا العقلية أو لتربيتنا النفسية؛ واذن فيجب أن تدور جهودنا في تعليم إحدى هاتين اللغتين حول تلك الغاية المثلى: يجب أن تدور حول المطالعة لأنها الغاية النفعية التي تحدثنا عنها. وليست الكتابة ولا الخطابة ولا تذوق الأدب بما فيه من قصص وتمثيل من شأننا في تعليم الانجليزية، فاذا جاء كل هؤلاء فانما يأتي بعد المطالعة لا قبلها

أما اللغة الأصيلة — وهي العربية عندنا — فينبغي أن تكون الغاية من تعليمها فوق ما ذكرت. إن القراءة جزء من الغاية التي ننشدها اذ نعلمها. نحن نعلم العربية لنخرج مفكرين يحسنون تصور الكلام ويجيدون التعبير عما في نفوسهم. بل يجب أن نعلمها حتى يتذوقوا التراث الأدبي الذي تزخر به اللغة نفسها. واذن فدراسة العربية ينبغي أن تكون تدريباً فكرياً وتدريباً نفسياً وتدريباً عملياً أيضاً، وتتشعب هذه الأغراض وتتعقد

فلسفة التربيـــة

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٣ —

« إن مصر لتدين لعظمائها الفلاحين بأكثر مما تدين لغيرهم ! »
« جاكسون »

« ولا بد من أن يطلب غداً أولئك الذين يخلقون ثروة الأمة شيئاً أكثر من الكلمات ! » « جاكسون »

« قد تستطيع أن تسوق الجواد إلى النهر ؛ ولكنك لا تستطيع أن تجعله يشرب منه » « مثل سائر »

٣ – التعليم الالزامى والديمقراطية

رأيت فى المقال الماضى انقسام عقلية المثقفين القلائل فى الأمة إلى معسكرين متباعدين ، وتبينت ما في ذلك الانقسام من ضعف يؤثر فى وحدة الأمة ويعرقل نهضتها ، وسترى اليوم ناحية أخرى هامة وخطيرة هي ناحية التعليم الإلزامى ...

ويكون من مظاهرها الكتابة والقراءة والخطابة . ولكل من هذه الغايات أصول تمتد الى أعماق الفكر وتتصل بأطوار النفس

أما الأغراض التى نرمى اليها اليوم فهي قاصرة لأنها تقف عن أن تدرك كل تلك الغايات . إن تعليم العربية عندنا يقتصر على تلقين ألفاظ غير محددة وهو يخلو من الرياضة الجمالية التى ينبغى أن نرمى اليها . أما وجهتها النفعية فهى لا تعلو الى أن تكافىء حاجات كل يوم فضلاً عن حاجات النفس العميقة . ولا يستطيع معلم أن يقول انه يتجه اتجاهاً فكرياً فى تعليم الألفاظ ولا إنه يصطنع الدقة فى تلقينها الا قليلاً

أغراضنا اذن من تعليم العربية كما نعلمها الآن غير واضحة . وهى فى الحق شعبة من اتجاه الكتاب والمفكرين عندنا عامة . ولكننا نلخص الأغراض التى يجب أن تحل عندنا فى التدريب العقلى أولاً وفى الرياضة الجمالية الحسية ثانياً وفى الانتفاع بها ثالثاً

أحمد خاكى

١ — كلمة الديمقراطية

وأحسب أنك تدرى تماماً كلمة الديمقراطية فى ذلك المجال بعد كل ما قدمنا من قول ! بل وأحسب أنك تذكر يقيناً عبارة الرئيس « وشنطن » فى المقال الماضى ، وما فيها من مبدأ عظيم يجعل مقياس نجاح الحكومة منحصراً فى دائرة زيادة خير أولئك الذين لا تكاد توجد عندهم ضرورات الحياة الأولية فحسب ، لا أولئك الذين عندهم الكثير وأكثر من الكثير ! ! وإذاً فلن تعجب إذا عرفت أن الديمقراطية تطالب هنا بمساواة « الجميع » فى فرصة إظهار الكفايات ، وتنظر للتربية كوسيلة جوهرية تنوم للشعب مقام الصلاحية للبقاء عند الحيوان ، وترتقى به من مستوى العجماوات إلى مستوى الإنسان ، وتسد ما بينه وبين الطبقات الراقية من هوة سحيقة مليئة بالبؤس والشقاء ، والفوضى والاضطراب ؛ وتؤهله أخيراً لأن يحقق معنى الحياة الديمقراطية بمطالبها الاجتماعية والسياسية على أصح وجه تنشده هذه الحياة !

٢ — التعليم الحاضر

فترى هل حقق التعليم الإلزامى المصرى الحاضر مطالب الديمقراطية الصحيحة أو نهج على الأقل نهجاً قويماً نحو تحقيقها ؟ ذلك هو السؤال الذى يجب أن نسأله ، والذى ينبغى أن نستمع فيه لإجابة النظار والمدرسين والفلاحين قبل أن نستمع لاجابة النواحى الأخرى ، والذى يجب أن نستوحى فى فحصه مبادئ الديمقراطية أكثر مما نستوحيها فى غيره ، فترى ماذا عسى أن يكون الجواب ؟

أحسب الأمر واضحاً لا يحتاج إلى جلاء ، فأكثر من خمسة وثمانين فى المائة من سكان هذا البلد أميون بكل مافى الأمية من معنى الفقر الأدبى المروع ، وميزانية التعليم الالزامى ضئيلة إذا قيست بميزانية بعض النواحى الأخرى التى تقل عنها فى الضرورة والخطورة ؛ هذا إلى أننا كثيراً ما نبعثر ألوف الجنيهات فى الكماليات التافهة غير ناظرين إلى حاجة مثل هذا التعليم إليها ، ومع ذلك فتعليمنا الالزامى الحاضر ما يزال مشوباً بألوان من النقص يسيرة وعسيرة ، وحسبك أن تعلم أولاً أن « مبدأ المساواة فى فرصة إظهار الكفايات » مهدوم حياله من أساسه لأن المتخرج منه لا يستطيع قط أن يطرق باب التعليم الابتدائى وما

بعده من فنى أو ثانوى أو جامعى إلا فيما شذ وندر[1] ، وبذلك أصبح الذكاء الشعبى محروماً من الدخول فى حومة الثقافة الراقية الواسعة والتلذذ بما فيها من نعيم ، وخدمة الوطن عن طريقها خدمة نافعة ! ثم حسبك أن تعلم أن أحد نظار مدارس هـذا التعليم قد كتب إلىّ مقرراً أشياء كثيرة خطيرة ، أهمها قلة مرتبات المدرسين بالقياس إلى عملهم المرهق الذى كثيراً ما يقفز إلى ٤٨ حصة فى الأسبوع[2] !! وكثرة أعمال الناظر (أو رئيس المكتب) الإدارية إلى جانب أعماله كمدرس مما يحول بينه وبين القيام بواجبه على النحو المنشود ، وسوء أماكن الدراسة وقذارتها وعدم وجود الأفنية والمظلات ، وتعسف حضرات المفتشين أحياناً وأخذهم المدرس باللوم أمام التلاميذ !! وجمع الكتب من الأولاد فى آخر الدرس ، وعدم اتفاق بعض هذه الكتب ومادة المنهج المرسوم !! ثم خروج المتخرج منها أخيراً دون أن يحذق أبسط تعاليمها وهي القراءة والكتابة ، نظراً لحشو المنهج بالمعلومات غير اللازمة من ناحية ، ولعدم استطاعة المدرسين البؤساء التعساء القيام بمهنتهم كما ينبغى من ناحية أخرى ...!!

هذا وقد بحث الأستاذ « جاكسون » تلك الناحية فى رسالته الآنفة فراح يقول : كيف يكون التعليم مجدياً وهو إلزامى بكل مافى الإلزام من معنى ؟ إن التعليم الحق هو ما أتى من « الداخل » فحسب ، وكل تعليم لم يأت من هـذه الناحية لا يكون أكثر من طلاء خارجى كله تشدق بالألفاظ وغرور وكبرياء لا يجديان فتيلا . ولذلك ما يلبث أن يسقط غير تارك وراءه إلا المكر والاجرام إذا لم يحل محله غرس خلق متين ، وإذاً فكان الأفضل أن يترك القروى فى مثل هـذه الحال ليتعلم من الرياح والنجوم والذوق العام ، وأن يبقى أمياً بريئاً ساذجاً لا يعرف كيف يعلو على أهله ويحتقر الفأس والأرض ، ولا كيف ينزح إلى المدينة ليعيش عيشة أرق وأنظف !!

(١) ليس لخريج التعليم الالزامي فى الغالب إلا الحقل أو الأزهر أو تجهيزية المعامين وبالمثل ليس لخريج التعليم الأولى إلا مثل هـذا الطريق . ولا يكاد يدخل التعليم الابتدائى إلا أبناء الموسرين ومن إليهم ، والهوة سحيقة جداً بين هذا التعليم والتعليم الالزامى !!

(٢) ويوجد بجانب هـذا التعليم نظام التعليم الأولى . وبالرغم من أنه يشابه التعليم الالزامى فى المنهج وكفاية المدرسين إلا أن أجر المدرس فيه وعمله غيرهما فى التعليم الالزامي . وحسبك أن تعلم أن المدرس بالتعليم الأولى قد يمتد أجره الشهرى إلى ثمانية أو عشرة جنيهات بينا لا يمتد أجر المدرس الالزامى إلى أكثر من أربعة جنيهات وربع جنيه ! هذا إلى أن عمل ذى الأجر الأكثر لا يزيد على ٢٨ حصة ، وإلى أن نظام تثبيت ناظر الالزامى عسير للغاية وفى كل ذلك بالطبع من إماتة نشاط المدرس وإخلاصه ما فيه

لذلك كله لم يستسغ الآباء بعد هذا التعليم ولم يشعروا شعوراً كافياً بالحاجة القصوى إليه ، ويساعدهم على ذلك ضعف الدعاية اللازمة ، وعدم جاذبية المدرسة ، واشتراك الناظر والمدرسين فى صب هذا « الالزام » على رؤوسهم ورؤوس أولادهم[1]

٣ — العلاج

وينحصر العلاج الناجع الذى يراه الدكتور « جاكسون » لتدارك هذا الموقف فى ناحيتين . الأولى تغيير المنهج بحيث يلائم حاجات البيئة ولا يبدو كأنه مفروض من سلطة متعسفة ؛ ويتأتى ذلك باشتماله على دراسة عملية للتربة أو الدورة الزراعية ، وأنواع الأسمدة ، وحياة الحشرات والنباتات والزهور ، والقيم الغذائية للمواد المختلفة ، وأصول صحة المنزل فى الدائرة القروية الممكنة ؛ كل ذلك إلى جانب القراءة والكتابة والمعلومات الأخرى التى تقرب بينه وبين الطبقات الأرقى وتحببه فى العمل والعاملين ، وتسد الهوة بينه وبين أبناء الأثرياء المنعمين !

أما الناحية الثانية : فتتلخص فى دعاية واسعة النطاق غايتها تحبيب الشعب فى ذلك التعليم بكل الوسائل حتى لا يكون هناك إلزام بالمعنى المكروه . ويحسن أن تكون هذه الدعاية عن طريق زعماء الشعب أنفسهم ونوابه وكل من يجلهم ويقدر كلمتهم ، آناً بالحضور الشخصى وآناً بالإذاعة ، كما يحسن أن يشترك فى هذه الدعاية أغنياء القرى وذوو النفوذ بها ، وأن تصطحب الدعوة فكرة دينية أو وطنية ، وأن يقضي فيها نهائيًّا على القول القائل بأن معنى التعليم هو إلقاء الفأس وإمساك القلم ؛ وبهذا وبغيره يصبح التعليم ضرورة لدي الفلاح ، فيسعى إليه بنفسه ، ويعتبره فريضة دينية أو وطنية !

٤ — الحاجة الى مدارس جديدة

على أن الإصلاح لا ينبغى أن يقف عند هذا الحد . إذ يجب

(١) كثيراً ما يسوق المدرسون الأولاد إلى المدرسة بعد الامساك بهم فى بيوت أهليهم . وكثيراً ما يحرر الناظر بنفسه إنذارات مخالفة قانون الاجبار . والعجيب بعد هذا أن محاكمة المخالفين لهذا القانون يطول أجلها أحياناً وتنتهى بضياع نصف السنة أو جلها على المتعلم

أن يختلف تعليم القرية تماماً تبعاً لاختلاف بيئتها ، ويجب أن يكون المحور الأساسى فيه هو ربط عمل المدرسة بعمل الحقل ، ويجب أن تتجدد المدرسة ذاتها فى نظامها العام والخاص تجدداً يزيل طابعها القديم فى نفوس الفلاحين . يجب أن يكون البناء جذاباً ويجب أن تزاد الثقافة الفنية للمدرسين على نحو خاص يمكنهم من النجاح التام فى أداء مهمتهم العظيمة الخطيرة(1) ويجب أن يكون بالمدرسة استعداد تام للخدمة الطبية ، وأن يكون التعليم الدينى بها على وجه منتج ومفيد لا لمجرد آيات تقرأ وتحفظ فحسب ؛ هذا إلى وجوب نزول المدرسين بها إلى العمل مع التلاميذ حتى يضربوا لهم المثل الصالح فى حب العمل وتقديره ، وإلى وجوب تزويد كل ولد أو بنت بكتب الحفظ كالدين والأدب والعلم ، على أن يكون بالمدرسة ذاتها مكتبة عامة للتلاميذ والأهالى والخريجين جميعاً ...

ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى ماذا يمنع أن تكون المدرسة مركزاً لتعليم الآباء والأمهات تعليماً خاصاً ، ولإدخال السرور والابتهاج على أهالى القرية بما تقيمه فى الآن بعد الآخر من مباريات طريفة ؟ وماذا يحول بين رجالها وبين جمع الحكم والأغانى والذكريات والأشغال المحلية بين جدرانها حتى يخرج التلميذ عارفاً بحياة بيئته وبتاريخها وبشتى نواحى النشاط فيها ؟ إننا بهذه الطريقة نجعل المدرسة خير صديق للقرية ، ونجعل الحياة فى القرية ذاتها محبوبة لا تدعو إلى تفضيل حياة المدينة عليها

قد يقول قائل إن هذا مشروع ضخم وفى القطر حوالى ثلاثة آلاف وأربعمائة قرية ! ؛ وهو بالفعل كذلك ولكنه بعد ضرورة ملحة فى القرن العشرين ! ، قرن المدنية والنور ! وإذا فلتضغط الحكومة مصروفاتها الكمالية ضغطاً ، فإنها إن فعلت استطاعت — مع الخطة الحكيمة — أن تنفذ هذا المشروع فى بضع سنين !

٥ — تعليم البالغين فى السويد وانجلترا

أما تعليم البالغين فيتطلب مجهوداً آخر . وها هى السويد قد أسست حوالى ٥٤ مدرسة لإشغال فراغهم بدراسة اللغة والاقتصاد المنزلى والرياضة والموسيقى وأشغال الإبرة والخشب والمعادن . وها هى انجلترا تبعث بمحاضر كفؤ ليحاضر طلبة أمثال هذه المدارس بها فى شئون عامة كالطفولة والتمريض ، وآداب اللياقة ونحوها ، وكثيراً ما يستعان هناك بالراديو فى نشر الثقافة القروية الملائمة(1)

فترى ماذا يمنع مصر من الأخذ بمثل هذا النظام ؟ وكيف السبيل إلى الاستفادة من مشروع « المجموعات القروية » مثلا إذا لم توجد أولا العقول المتهيئة للاستفادة والفهم ؟

خاتمة

يجب إذاً أن نتيح للفلاح حياة أرق ، وألا نتخذ من عدم شكواه وسيلة إلى إهماله . إن النور سيطرق بابه عاجلا أو آجلا ، وسوف لا يرضى حينئذ بحظه الراهن قط . بل هو على النقيض سيطالب بحياة أكثر تنوعاً ، وبعمل أقل إرهاقاً ، وبفرصة لكفاح أبنائه أكثر اتساعاً . نعم لا بد من أن يطالب غداً أولئك الذين يخلقون ثروة الأمة شيئاً أكثر من الكلمات ! .

« يتبع » **محمد حسن ظاظا**

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

(1) اعترف لى بعض حضراتهم أن مقرر التاريخ يحوي دروساً عن الاسكندر ومينا وتحتمس وغير هؤلاء مما لم يحسنوا دراسته

(1) وتقوم جمعية « نهضة القرى » فى مصر بتكليف الطلبة بنشر بعض نواحى هذه الثقافة بين البالغين ، ولكن ما يزال الأمر محتاجاً إلى دقة الحكومة وحزمها وإشرافها

رسالة الأديب الى الحياة العربية

للكاتبة النابغة الآنسة « مى »

« نبشر أصدقاء « مي » وعشاق أدبها بانكشاف الغمة عن صحتها وحريتها ؛ فقد استطاعت أن تلقى هذه المحاضرة القيمة فى ٢٢ من شهر مارس فى العروة الوثقى بالجامعة الأمريكية على حفل حاشد من أعيان الفضل والأدب فكانت أقطع الحجج على ما أرجف به المرجفون من أصحاب الهوى والطمع . وإنا ليسرنا أن ننقل إلى قراء الرسالة هذه المحاضرة عن جريدة المكشوف اللبنانية ليروا أن (مي) لا تزال على عهدهم بها تشع بالنور ، وتنفح بالعطر ، وتنبض بالحياة »

سلاماً يا وست هول ، يا موطن الفكر والرأى والحياة المنظمة فى كرامة وحرية ! كم من مرة جلست بالخيال بين جدرانك أتبادل والجمع الحاشد قوة الحيوية ، وآخذ قسطى مما يعج فى فضائك من فائدة علمية واجتماعية ! كم من مرة عدت بالذكرى إليك أصغى بخشوع إلى رسالات الفضل والعلم والتهذيب يتلوها هنا العلماء والمفكرون والمصلحون !

سلاماً أيتها « العروة الوثقى » ، الساهرة على وظيفتك فى تنوير الأفهام ، الحريصة على غايتك فى إحكام الرابطة العلمية والأدبية بين أقطار الشرق العربى ! كم من صيحة أرسلها أقطابك وأتباعك وأنصارك من على هذا المنبر المضياف ، فمضت كالطير تسبح فى القريب والبعيد من الأجواء حاملة رسالة العلم الصادق والبحث الرصين والخير العميم ، فكونت في أوساط قصية مواطن للفكر والرأى والحياة المنظمة فى كرامة وحرية !

ولئن أنا شكرت لك تشريفي بدعوتك واقتراح الموضوع ، فإنى كذلك شاكرة لأنك أفسحت لى مكاناً كريماً بين كرام ضيوفك ، عاملة بيدك القوية الوفية على إحكام الرابطة بينى وبين قومى ؛ وأشكر لكم أيها السادة والسيدات تفضلكم بالحضور .

إن اسم « العروة الوثقى » يلهم الفرد أنه ينقلب أمة عند ما يخاطب الأمة

وما أجمله موعداً موعدنا الليلة ! فنحن فى مطلع الربيع ، إذ باشرت الأرض إخراج زينتها وعرض مباهجها ، ونشرت السماء كواكبها وشموسها وأقمارها وضاءة فى رحيب الأفلاك ، وسرت الحياة نامية في فتى الغصون ، واهتزت الأرواح مترنحة لاستيعاب جديد النفحات . كذلك الشعوب العربية استيقظت من شتاء حالك الظلام طويل الأمد ، وانبرت تستقبل الفصل الجديد من حياتها ، متعهدة براعم الأمل والجد فى نهضتها ، ساعية إلى ازدهار ثقافتها ازدهاراً عامراً بهيجاً

الربيع يزف إلى الأرض رسالته ، ووست هول اليوم كما فى الأمس وفى الغد ، يؤدى الى المجتمع رسالته ، و « العروة الوثقى » تواصل العالم العربى برسالتها ، فماذا ترى تكون رسالة الأديب إلى الحياة العربية ؟

أيها السادة والسيدات :

إذا نحن تنحينا فى بحثنا عن الرسالة المثلى ، رسالة الأنبياء ، وجدنا أن الرسالة فى معناها الضيق هى الصفحة التى يكتب فيها الكلام المرسل ؛ بيد أن معنى الرسالة أرحب من ذلك وأشمل ، إذ لكل فرد ، وكل كائن ، وكل شىء ، رسالته فى معرض الوجود : فالشمس تؤدى رسالتها نوراً وحياة ، والزهرة تؤدى رسالتها عطراً ووسامة ، والجبال والوهاد تؤدى رسالتها تبياناً لطبقات الأرض وتنوع الخليقة ، والمروج والسهول تؤدى رسالتها خصباً وغذاء ، والسبل تؤدى رسالة الحركة والإنتقال ، والإنتقال يؤدى رسالة الأخذ والعطاء والتعاون المتبادل بين الأحياء

ولكل جمهرة من الناس فى كل بقعة من بقاع الأرض شؤون عدة ، إذا ما عولجت واستثمرت ونظمت وحسن التصرف فيها ، أصبحت تلك الجمهرة شعباً فأمة ، وصارت تلك البقعة بلداً فدولة ، وفى كل بلد صناعة ، وتجارة ، وعمارة ، وميكانيكا ، وإدارة ، وقوانين

ولكل أمة عادات وتقاليد وتاريخ وتربية وحكمة وثقافة وآداب وفنون . الشؤون المحسوسة ، على تعددها وعلى ما بينها من فروق ، متشابهة واحدة فى كل قطر ؛ وأخص خصائص الوحدة والتشابه نجده فى التقدم العلمى والميكانيكى ، وفى الحضارة الآلية السائدة فى كل مكان

ترى ما هو الفرق بين مخاطب بالتلفون ، ومخاطب بالتلفون ؟ بين مستمع إلى إذاعة راديو ، ومستمع إلى إذاعة راديو ؟ وبين راكب دراجة أو سيارة أو طيارة ، وراكب دراجة أو سيارة أو طيارة ؟ ليس من فرق بينهما من حيث الخدمة التى تؤديها الآلة . أجل ، ثمت فرق فى الغرض الذى نستخدم له الآلة ؛ وهذا ليس

موضوع البحث ؛ إنما الفرق كل الفرق فى الشخصية التى تستعمل الآلة ؛ والشخصية لا تتكون إلا من العوامل الأدبية : التاريخ ، الاختبار ، الذكرى ، اللغة ، الفن ، الأدب

الأدب إذن من أهم المقومات للشخصية ؛ وربما كان الأصح أن أقول إنه حجر الزاوية في تكوين الذاتية الفردية والذاتية القومية بالتبع . والفرق بين الشخصية والذاتية فيما أظن هو أن الشخصية تتكون مما يحيط بنا ويتقلب علينا من شؤون وأحوال ، فى حين أن الذاتية هى ما نظل عليه دائماً في صميمنا فى جميع الشؤون وفى جميع الأحوال . فما أبعدنا بهذا التعريف عن التعريف الشائع أن الأدب هو المستظرف من الشعر والنثر ، وأنه صناعة لفظية حذقت حيلة النكتة والتورية ، واستسيغت منها البلاغة والحلاوة فى وصف مجالس الأنس ، وتصوير جمال النساء ، وشرح لواعج الحب والغرام . كل هذا من الأدب بلا ريب ، وله أهميته ، وهو ذو إغراء ؛ ولكنه وجه فقط من الوجوه العديدة فى الأدب . ولئن اقتصر كل من العلوم والمعارف على نفسه دون غيره تقريباً ، فميزة الأدب فى أنه يحتضن الكثير من المعارف والعلوم ، وله أن يتغذى بها جميعاً ليعالجها على طريقته الخاصة ، فلا يكون بعد إلا أدباً

ولكم كانت المنتجات الأدبية والصور الخيالية سابقة للبحث العلمى ومعينته على الخروج من حيز القياس والإفتراض إلى حيز التطبيق العملى والاختراع ! أليس أن شاعرية الشعراء طارت إلى أجواز الفضاء قروناً طوالاً قبل اختراع الطيارات ؟ وفيالق العشاق (والعشاق شعراء وأدباء دواماً) ، ألم تناج أرواح الأحباب برغم شاسع الأبعاد قبل أن يصبح الراديو أداة من أدوات المنزل ؟ ومن ذا الذى يقرأ ولو كتاباً واحداً من كتب الأديب الفرنسى جول ڤرن الذى وصف الانطلاق من الأرض إلى القمر وصفاً علمياً قبل أن يقوم علماء الستراتوسفير برحلاتهم الجوية ، وحدث عن سلك أعماق البحار فى سفن ذات أجهزة ميكانيكية دقيقة قبل أن تحتوى أساطيل الدول على غواصات ترقب ما يجرى فى قلب اليم وعلى صفحة الماء ؟ من ذا الذى لا يذكر الكاتب الإنكليزى المعاصر ولز ، ومؤلفاته ذات الصبغة العلمية المتنبئة بمستقبل حياة ميكانيكية صرفة تترتب عليها حياة اجتماعية متوافقة ؟ لست من أشياع ولز ، ولكنى أشير إلى نظرياته شاهداً على رحابة الميدان للأدب

وإذا نحن عدنا إلى الكتب الدينية الثلاثة : التوراة، والإنجيل، والقرآن ، وجدناها متفقة على جعل الفردوس الأرضى في شرقنا الأدنى . فكان لنا أن نقول إن مجد الآداب كمجد النبوات وكمجد الحضارات أشرق من بلادنا ، وكانت اللغات السامية أول أداة للإفصاح عنه

التوراة مليئة باللهجة الأدبية . والتوراة كتبت أولاً باللغة العبرية ، والإنجيل ملىء باللهجة الأدبية ؛ والسيد المسيح تكلم بالآرامية والسريانية والعبرية ، قبل أن يكتب الإنجيل باليونانية واللاتينية لينقل بعدئذ إلى مختلف اللغات . والقرآن ملىء باللهجة الأدبية ؛ والقرآن هو الكتاب العربى المبين والمستودع الخالد لهده اللغة التى لا تموت مهما توالت عليها القرون وتناهبتها تصاريف الحدثان

ترون من كل هذا أننا معشر الشرقيين عريقون فى الأدب ، وإن أدياننا عمدت إلى اللهجة الأدبية لتكون أسرع اتصالاً بالنفوس وأبرع استيلاء على المشاعر . ولئن أجمع نفر من علماء اللغات في الغرب على أن اللغات السامية حماسية ، غنائية ، بيانية ، خطابية ، أكثر منها اختصاصية علمية ميكانيكية ، فنحن نعتز بذلك . لأن اللغة الأدبية هى لغة النفس ، لغة الجوهر ، لغة البقاء . واللغة المحتوية على الجوهر لا تضيق دون العرض والطارىء والإضافى . وليس لنا إلا أن نتابع الجهود التى باشرناها أفراداً وجماعات علمية — ناهجين نهج أسلافنا الذين نسخوا وترجموا ونحتوا واشتقوا وعربوا — لنجعل أداة اللغة كافية وافية فى تأدية كل مستحدث من المعانى والمسميات والاختراعات العصرية . ولنا من اتساع اللغة ومرونتها ما يمكننا من صوغ المفردات وسبك القوالب على طريقة ترضى من الناحية الواحدة مولانا سيبويه ، وترضي الواقع والذوق من الناحية الأخرى ، فلا يكون اسم الراديو مثلاً : الطمطان ، ولا يكون التلفون : أرزيزاً

ومعلوم أن الأدب كاللغة ، حليف التقهقر والتطور فى الشعوب التى تعالجه . وآدابنا في تاريخها الطويل أصدق شاهد على صحة هذه النظرية لأنها ازدهرت ثم لازمها الجمود وفقاً لارتفاع الدول العربية

وهبوطها . وصدق تلك النظرية أظهر ما يكون فى عصرنا الحاضر.

نظرة إلى البلدان العربية ، فماذا نرى ؟ بعد هجعة ثلاثة قرون أو تزيد استيقظت الشعوب العربية ، وحركات اليقظة لا تكون منتظمة فى بادئ الأمر ، وإرادة المستيقظ لا تكون مستقرة ثابتة ، وبصيرته تظل وقتاً ما غائمة غير صافية ولا نافذة . المستيقظ يلبث حيناً حائراً بين خيالات الليل وحقائق النهار ، ولكن كم فى خيالات الليل من حقيقة ، وكم فى حقائق النهار من خيال ! شعوبنا على همتها وتحفزها ما زالت قلقة مضطربة ، وأدبنا على وفرة جهوده وغزارة مادته ما فتئ مضعضعاً ، غير واثق من نفسه ، غير مستقر . فما هى حاجتنا اليوم من الناحية الأدبية ؟

إذا كان الأدب صورة للشخصية العامة من خلال الشخصية الفردية الخاصة بحسناتها وسيئاتها ، بحوافزها ومعلوماتها ، بنورها وظلامها ، بتقاليدها وأوهامها ، بخوالجها وممكناتها ، بيأسها ورجائها — إذا صح ذلك ، وهو صحيح — فنحن نحتاج اليوم إلى صوت الأديب وإلى رسالة الأديب .

المعترضون يقولون : ولكن الأقطار العربية متعددة ولكل قطر حياته الخاصة ولهجته الخاصة . أفيكون إذن لكل قطر أدبه الخاص ؟

كيف لا ؟ وهل غير ذلك فى الامكان ؟ أو ليس هذا هو شأن سائر الآداب ؟ أو تتكون الثروة الأدبية واسعة فى اللغة الواحدة إلا بتعدد الآداب المحلية وتنوعها ؟ أو ليس لكل من أميركا ، مثلا ، وانكلترا واسكوتلاندا وإرلندا ، أدب خاص مجموعها يكون آداب اللغة الانكليزية عموماً ؟ وفى كل هاتيك الأقطار الغربية لهجة محلية هى غير اللغة الانكليزية ، والشعب يتخاطب بلهجته وباللغة الانكليزية ، ويكتب بهذه اللغة وبتلك اللهجة على السواء . فعلام نحن نشكو مما يراه الآخرون شيئاً جد عادى ؟ ومن المشاكل والمصالح والآلام والآمال ما هو مشترك بين جميع البلاد العربية . فرب زفرة حزن أو صيحة استبسال وجدت صداها متردداً فى ملايين القلوب العربية ! ورب رسالة أدبية انطلقت من قطر واحد ، فاجتاحت عديد الأقطار العربية المتناثرة من شواطئ الاطلانطيق إلى خليج العجم !

أجل ، نحن فى حاجة إلى أقلام تخاطبنا باللغة العربية ببيان جميل يصور شخصية الأديب ، ويشرح حالة الأمم ، وينشر أمامنا صحيفة الأزمنة الثلاثة : الماضى والحاضر والمستقبل . فالماضى ينبثق انبثاق الينبوع فيخصب النفوس . وكما يكتنه الأديب ذخائر الماضى فكذلك هو يطلع على شؤون الحاضر ، متصلا بكبار الحوادث التى تهز قومه فى النقمة وفى النعمة ، فى السخط وفى الرضى ، وإذ يرى الحوادث داخلة في دور الغليان ، والشعوب فوارة صاخبة كالحمم فى فوهة البركان ، وإذ يشهد الظلم والعذاب والمرض والنفاق فيبحث عن الانصاف والصحة والصدق والانشراح — عندئذ تتم فى داخله عملية عجيبة ، ولا العمليات الكيميائية . يخيل إليه أن موسيقى شائعة رائعة تنطلق من الأزمنة والحوادث والشعوب موحية إليه سر الفن الجميل فينقل الينا منها ما ينقل ، جاعلا لكل شئ أهمية خاصة تهز منا المشاعر ، وتستثير الحماسة ، وتكيف الآراء . ومن معالجة الأديب للأزمنة والحوادث والشعوب ينبعث لنا المزيج الفتان فيلفتنا إلى أن في طبيعتنا رحاباً لم نكتشفها وإن فى أرواحنا ممكنات توسع أمامنا أفق الحياة .

وإذ يحدثنا الأديب عن النظريات والمذاهب والشخصيات نتحزب مختارين لها أو عليها ، فننكر نظرية ونؤيد نظرية ، نمقت شخصية ونحب أخرى محاولين الاندماج فيها ، ندحر مذهباً وننتصر لغيره تائقين إلى نشره فى الملأ مع رفاق نوليهم الثقة . كذلك الأديب يجوز بنا بحر الحياة المكفهر كسفينة استغنت عن الشراع والقلوع وعن الرياح المؤاتية ، لأن له من نفسه القوة التى تسوقه إلى الأمام . وليس من اختبار يمر به إلا تأثرت به كتاباته ، فلا نفتأ نتطلع إلى كل ما يحدث له متسائلين عن سر قوته فى المناعة ، وعن سر قدرته في الإبداع ، ذلك السر الدفين ، ذلك الجوهر المكنون المعرض عن كل تأويل وتفسير ، السباق إلى أجواء من التفكير والإحساس والتكوين ، لا نأبه لوجودها إلا بعد أن يجول جولته فيها

وسرعان ما يتصل الحاضر بالمستقبل فى فن الأديب : جيل جديد يتخرج على آثاره وعلى مؤثراته ، فيشب حاملاً معه الفكرة التى تنيل الحياة قيمة فى تذوق الجمال الحسى والأدبى ، وفى ممارسة الجمال تأملاً وسمياً وجهاداً ، رافعاً بيده مشعل الحب العتيد للوطن ، والرجاء وللتقدم ، وللشهامة وللبطولة ، ولإرضاء غريزة الحرية !

رسـالة الأديب تعلمنا أن لـكل قطر من الأقطار العربية حضارة غابرة حلت محلها الحضارة العربية ناسخة عنها وعن غيرها لتسبكها فى قالبها وتدمغها بطابعها الخاص . رسالة الأديب تعلمنا أن الغرب الحاذق عرف كيف يقتبس عن حضارتنا يوم كانت حضارته وثقافته وشيكة . ولـكن ما أغزر ما استفاد وما أخصب ما أنتج ، وما أبدع ما ابتكر ! وإن الحضارة العربية كانت الصلة المتينة بين الغرب الجديد وحضارة اللاتين والأغارقة . وها هو ذا الغرب يرد إلينا الآن دينه كشعاع من الشكر بما ينشره بيننا من ثقافة ، فعلينا أن نأخذ عنه بمثل المهارة التى أخذ بها عنا !

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الميكانيكية أدوات نستعبدها ونستخدمها ، لا أدوات تستخدمنا وتستعبدنا . وإنه لا يكفي أن يضغط امرؤ على الزر الـكهربائي فينال سحرى النتائج ، وأن يمتطى سيارة أو طيارة فيطوى شاسع الأبعاد ، وأن يرقص رقصة ويصغى إلى إذاعة ويتعمل التأنق والحذلقة متكلما بخليط من لغتين أو ثلاث — لا يكفى كل ذلك ليكون شخصية ممتازة ترهب هيبتها الأكوان

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الآلية التى ألفناها ولم يكن يحلم بها أجدادنا تجعلنا اليوم أشـد احتياجاً منا فى الماضى إلى ثقافة أدبيـة تدعم الحضارة الآلية وتكون لها ركناً ركيناً . وإن هذه الحضارة الآلية المنتقلة بسرعة من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل ، ننعم بها — ونشقى ! — دون أن يكون لنا يد فيها . أما الثقافة الأدبية فيجب أن يحصلها كل فرد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، مدى الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن للعالم العربى على تعدد أقطاره وحدة واحدة تشغل مكاناً فسيحاً فى القارتين الآسيوية والأفريقية . ويستطيع أن يقول هـذا القول علماء الجغرافيا وعلماء التاريخ وغيرهم . ولـكن للأديب فناً مغرياً ينيلنا الثقافة والفائدة ، بينا نحن نرتع فى بحبوحة من اللذة والمتعة فى جو ممنطق أخاذ هو فى الواقع جو الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن نفاخر بلغتنا العربية الممتازة على سائر اللغات بأنها ولدت قبل لغات قديمة اندثرت منـذ قرون ، وما زالت العربية تفيض حياة ، مجارية حتى أحدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة . كل أمة تسعى الآن إلى نشر لغتها بين الأمم الأخرى ، باذلة فى سبيل ذلك المـال والإغراء والدعاية والجهود . أما نحن فانتشار لغتنا شيء واقع ، وميزتها هـذه تربط بين الأقوام العربية برباط قوى جاعلة الفرد الواحد منا ملايين

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية ، إذ بهـا لا بغيرها تقاس مواهبنا ، ويسبر غور طبيعتها ، وهى التى تثبت وجودنا ، وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الانسانية فينا

رسالة الأديب تعلمنا حب العزلة والسكون ، وترجمنا عن الفخفخة وهوس الظهور ، فنعتكف على أنفسنا نعالج ممكناتها للظفر بمحمود النتائج . فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج ، حاملة بشائر الحياة ، لا تولد حبتها ولا تنضج إلا فى أحشاء الأرض ، فى جو الوحدة والهدوء والـكتمان

رسالة الأديب تعلمنا ألا نخشى كارثة ، ولا نهيب مغامرة . كل زمن خطير فى التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث ، وأعظم فوائد الإنسانية نجمت عن عصور العـذاب والخطر . الخطر مرهف ، ولا يعرف شأن ذى الشأن إلا يوم الـكريهة . والعاصفة لا تقتلع إلا ضعيف الأغراس ؛ أما الأشجار ذات الحيوية العصية فالأعاصير تلح عليها وتهزها هزاً عنيفاً فلا تزيدها إلا قوة ومناعة

رسالة الأديب تردنا عن عديد الشخصيات القومية التى تجذبنا من كل صوب لتركزنا فى شخصيتنا القومية الأبية

رسالة الأديب تعلمنا كيف نفهم كل شيء ونستفيد من كل شيء ، باحثين عن الصواب والـكمال خلال كل نقص وكل زلل ، نازعين إلى الجمال الحسى والأدبي حيال كل دمامة خَلقية وخُلقية مساجلين النفوس والعناصر ، مناجين المنظور وغير المنظور ، لنجعل من حياة متنافرة متداعية ، حياةً متناسقة متماسكة

أى شيء لا تعلمنا رسالة الأديب ؟

إنها قوة تستفز قوتنا ، وموهبة تحفز مواهبنا ، وصرامة تردنا عن الحقارة ، وبسالة تدفعنا إلى البسالة ، وعذوبة تؤاسى أحزاننا ، وأغرودة تطرب أشجاننا ؛ وهى عالم مستقل متماسك يسوقنا إلى تكوين عالمنا المتآلف المستقل !

نحتاج إلى الأديب يأخذ منا ويعطينا ، فيرسـل صوته أريباً رصيناً مسيطراً أخاذاً حضاناً !

ونحتاج إلى رسالة الأديب قوية غنية عنيدة ملهمة لتوقف قوميتنا فى مكانها المشروع فى معرض القوميات بميدان العمران العظيم !

« مى »

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنــــكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٦ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم



وما حيلة الطب فى نوازٍ توبق الروح ، وهواجس تعمى القلب؟ وإن بدت آثار هذه وتلك فى نواحى البدن عجز الطبيب ، ولا عجب أن يعجز ، وجاء الصديق ليفعل ما لم يستطع الطبيب أن يفعل ، وهو خبير بالعلة عليم بموضعها من نفس صاحبه

باع سبيد حانوته وعول على الرحيل إلى كنتوكى فعرض على صاحبه لنكولن أن يذهب معه إلى هناك عله يشفى مما به فى تلك الأحراج التى درج منها أول ما درج . دعاه سبيد أن ينزع نفسه وجسمه من ذلك البلد الذى يكربه العيش فيه بعد أن كان منتجع آماله ومهوى خواطره ، ورحل ابراهام مع صديقه وقد اخترم الهم جسده فزاده نحولا على نحول ، وزين له الشيطان أن يطلب النجاة من الحياة ... !

ولبث فى كنتوكي أياماً ، لقى فيها من كرم صاحبه وكرم أمه وأخته ما هون عليه أمره شيئاً قليلا ، وصاحبه لا يفتأ يسرى عنه وينصح له ، وهو يشكو إليه اضطراب أعصابه ويظهره على هواجس نفسه ، ويذكر له والألم يبرح به فعلته التى فعل وكان فيها غير كريم ، بل وكان من الضالين ... بيد أنه لم يلبث وقد كان يلتمس العون من صديقه أن رأى ذلك الصديق فى حاجة إلى من يعينه ، فقد طاف به على حين غفلة طائف من الحب ملك عليه قلبه وعقله !

وانقلب الأمر فغدا لنكولن هو الناصح ، وراح يجهد أن يهدى صاحبه حينا وسوست إليه نفسه معانى كتلك التى كانت تجول فى خاطره هو : معانى الحيرة والتردد والشك . فلقد أصبح سبيد يحار فى أمر حبه كما أصبح ينتابه الخور كلما اتجه فكره إلى الزواج شأنه فى ذلك شأن ناصحه . وكان فيما يسديه ابراهام من نصح لصاحبه مسلاة له أو شاغل يشغله عن وجده ؛ على أنه وهو فى كنتوكى كتب رسالة فى الانتحار ترينا أن الغمة أو اليأس كان قد أوشك أن يذهب عنه . خذ لذلك مثلا قوله : « إنى لم أصنع فى الحياة شيئاً يذكّر أى إنسان أنى عشت . ومع هذا فان ما أعيش من أجله هو أن أربط اسمى بحوادث يومي وجيلى ، وأن أقرن ذلك الاسم بصنيع فيه لمن حولى من الناس جدوى »

ولما عاد إلى سبرنجفيلد ظلت كتبه مدة أكثر من عام تترى على صاحبه ، وفيها من حسن النصيحة وقوة الاقناع ورقة العاطفة ما يكشف لنا عن حقيقة نفسه . ويصور نزعات وجدانه . كان يعزو ما بات صاحبه يشكو منه إلى اعتلال أعصابه وإلى ما تحدثه الوحشة والبعد عن الخلان وأحاديثهم فى مجالس لهوهم من انقباض وضيق ، وإلى ما تركته الوراثة فى طبعه من شدة التأثر وقوة الانفعال ؛ وكان يكتب ذلك في جلاء وقوة حجة هما من أبرز صفاته . وكان عجباً أن نرى مثل ذلك من لنكولن ، فنرى فيه العالم النفسانى ، والشاعر الرقيق العاطفة ، وهو الذى علم نفسه بنفسه ... !

وتزوج سبيد بعد ذلك وبقى لنكولن حيث هو ، موقفه اليوم من مارى عين موقفه عقب ذلك الفرار الشائن ؟ فعاد إليه بذلك ما شغلته عنه قصة صاحبه زمناً من هموم نفسه ! وأصبح فإذا هو ضائق بوساوسه . وزاده تبرماً بحاله وإنكاراً

لشأنه ما كان يسمعه من صاحبه عن سعادته الجديدة بين يدى زوجه ... لذلك لم يكن عجيباً أن يلتمس السكينة من جديد عند فتاة ناهد كان قد عرفها قبل أن يعرف مارى . بيد أنه كان يتجه بينه وبين نفسه إلى مارى ، فهو لا يستطيع أن يبتعد بخياله عنها . قال فى كتاب من كتبه : « يخيل إلىّ أنه ينبغى أن أكون جد سعيد لولا تلك الفكرة اللازمة لى ، ألا وهى أن هناك شخصاً غير سعيد عملت أنا على أن يكون كذلك . إن تلك الفكرة ما تزال تريق روحى ؛ ولا معدى لى عن أن ألوم نفسى حتى على مجرد الأمل فى السعادة فى حين أنها على ما هى عليه »

وكان لنكولن يحدث نفسه أنها لا تزال على الرغم مما حدث بحيث يتأتى لهما أن يتصلا إن هما أرادا ذلك . وكانت هى من جانبها تحس أن ما كان منه من هجران وقطيعة قبيل ما استعدا له من زفاف قبل ذلك بعام ونصف عام لم يصل على شناعته إلى مثل الصدمة القاضية ...

ودبر رجل من صحابتها وزوجه أن يدعواها إلى مأدبة على جهل كل منهما بدعوة الآخر . وتم ذلك فالتقيا وتضاحكوا جميعاً بعد أن ذهبت عن ابراهام وصاحبته ربكة المفاجأة . وكان ذلك اللقاء والخطوة الأولى نحو التئام الصدع واجتماع الشمل ؛ إذ أصبح لنكولن يرى حقاً عليه أن يصلح ما أفسد وأن يضع حداً لما هو فيه من ضيق وشقاء

وحدث بعد ذلك أمر غريب فى ذاته ، على قدر غير قليل من الأهمية من حيث نتيجته : ذلك أن إبراهام ، وهو الرجل الذى ملك القلوب بدماثته ورقة حاشيته ، قد دخل غير متردد ولاهياب فى مبارزة تدور على السيف ! وكان لتلك المبارزة سبب يدهش له الإنسان أن كان مبعثه شخص مثل لنكولن ! فلقد نشر ابراهام فى إحدى الصحف كتاباً على لسان أرملة وجهته إلى أحد رجال السياسة تسفه فيه آراءه التى أذاعها ، وكان التهكم لاذعاً والنقد قاطعاً ، فأثار الكتاب فضول الناس كما أثار ضحكهم وإعجابهم ؛ ووردت على الصحيفة ردود قوامها المجانة والمعابثة وكلها غفلاء من أسماء أصحابها ... وكان لمارى فى هذه الردود نصيب . وثارت ثائرة ذلك السياسى وراح فى المدينة يتهدد ويتوعد ؛ وجاء صاحب الصحيفة فمنفه وتهدده بالانتقام إلا أن يعرف صاحب هذه المجانة . وعرض صاحب الصحيفة الأمر على لنكولن فقال له فى غير وناء ولا استخذاء : إنه يأخذ الأمر على عاتقه ، وإنه لذلك فى حل من أن يذيع اسمه . وتم ذلك فكانت المبارزة ... فلقد تحداه ذلك السياسى أن ينازله ، وشاع أمر ذلك فى الناس فاحتشدوا ليشهدوا ما يكون بينهما ...

وكان لإبراهام من طوله وفتوته وقوة ساعديه ما يضمن له الفوز على منازله القصير ؛ فتناول سيفاً طويلاً ولم يزد – والناس يتطلعون – على أن ضرب به غصناً فوق رأسه فألقى به بعيداً . ثم جلس وفى عينيه أنه يريد أن يلقى إليهم حديثاً وراح يحكى ويستجمع الأمثال ... ! وتداخل الناس وسووا ما كان بين المتخاصمين ، وانقلب الجد الصارم إلى فكاهة عابثة

بيد أن للحادث نصيبه من الأهمية ؛ فلقد ترك فى حياة لنكولن صفحة ظل يندى لها جبينه أبداً ، كما حق لمارى أن تتحدث إلى الناس أن إبراهام ما فعل هذا إلا دفاعاً عنها وحفاظاً أن ينالها شىء من غضب ذلك السياسى . وطاب إبراهام بذلك نفساً . وقربت الأيام بينهما حتى باتا من جديد يأخذان الأهبة للزواج . وما هى إلا أيام حتى ربطهما ذلك الرباط المقدس وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين

واستنشى ابراهام نسيم الراحة أن أخذت تتزايل هواجسه ويتضاءل هوانه على نفسه ، وأخذت تعود إليه ثقته بتلك النفس سيرتها الأولى ، وإن كان الذين شهدوا العروسين حين عُقِد قرانهما رأوا لنكولن وعلى وجهه سحابة من الكآبة والوجوم كانت تتقشع حيناً على ما يتكلف من بشاشة ثم تعود فتنعقد !

وأقام لنكولن أول الأمر وعروسه الطموح المستعظمة فى حجرتين صغيرتين فى نزل كانا يدفعان أجراً لهما أربعة دولارات كل أسبوع . وعظم ذلك على مارى فشكت إلى زوجها ولم يمض على زواجهما غير قليل ، وهو يلقى إليها المعاذير مشيراً إلى ضيق رزقه وإلى ما لا يزال يقتضيه الوفاء من ديونه ... وبسط الله له رزقه بعض البسط ، فانتقل الزوجان إلى بيت صغير استطاعا أن يدفعا فى غير عسر أجر إقامتهما فيه

وأخذت مارى فى بيتها الجديد تدبر شؤونه وترعى أمره ، وقد اتخذت لنفسها سلطة ربة البيت لا تتنازل عنها فيما عظم أو هان من الأمور ، حتى لقد كانت تأخذ زوجها بألوان من الشدة والعنف حينما كانت تدعوه إلى كيت وتصرفه عن كيت ، ورائدها

فى ذلك النظام كأدق ما يكون النظام . وكان يصل بها الغضب أحياناً إلى هياج شديد ، وذلك حين كانت ترى من بعلها أن يأبى إلا أن يرسل نفسه على سجيتها ، فكثيراً ما لا يعبأ بما صالح الناس عليه أذواقهم من أوضاع وتقاليد يلزمونها وهم جلوس إلى مائدة الطعام ، أو وهم سامرون فى الثوى . وهل كان يستطيع ابن الأحراج أن يتكلف ما لم يجر فى طبعه ؟ ولكن امرأته لا تفتأ توجهه إلى العناية بهندامه وتحثه على النظام وأنه ذلك خليق به وله فى الناس مكانته ؛ وهى تريده على أن يحمل الأمر على الجد وهو يجاريها ليخفف من حدتها ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يغير من طبعه . وكان إذا اشتد بها الغضب يلاطفها ويضاحكها ليصرف عنها غيظها ، فان عجز عن ذلك خرج من المنزل فمشى ساعة أو بعض ساعة ...

وحق لزوجه أحياناً أن تغضب منه ؛ فهو سخى اليد وإن كانت به خصاصة ، وهى لا تريد أن تبسط يدها إلا بقدر ما تستطيع . وهو يلقى الناس فى البيت فى هيئة تنم على عدم المبالاة ، فثيابه متهدلة وشعره أشعث ، وعباراته ساذجة ، وهو يستلقى على ظهره أحياناً ويتمدد على الأرض وفى يده كتاب لا يصرف وجهه عنه ؛ ويتدخل أحياناً فيما ليس من أمره فيحلب البقرة فى الحديقة ، ويحمل اللبن فى وعائه بين يديه ويهرول به إلى الدار على أعين السابلة والجيران!

ولكن زوجه على الرغم من ذلك تحبه وتكبره ، وتنتظر ما يخبئه له الغد من جاه وسلطان كأنها تعلم الغيب أو كأنها ترى مالا يراه الناس . وكتب لنكولن إلى صديقه سبيد ينبئه أنه رضى النفس قرير العين ، ويعتذر له من عدم زيارته إياه بفقره وشواغله ، ثم يبشره أن قد صار لهما غلام ...

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما هو متصل بحياته الشخصية ؛ بيد أن زواجه من تلك المرأة كان حادثاً عظيم الأهمية فى حياته ؛ فلقد مر بك من صفاتها أنها امرأة ذات طمع وطموح . وأنها كانت ترى بما يشبه الالهامة الطريق المؤدية إلى عليا المراتب ، وما كانت تقنع بما هو دون مرتبة الرياسة ! لذلك كانت لزوجها خير معين حين تقدمت خطواته فى ميدان السياسة . وكثيراً ما كانت ترده إلى الطريق السوى إن هو أوشك أن يتنكبها . ويتجلى ذلك فى عدة مواقف سيأتى حديثها بعد حين ...

نرجع بالحديث بعد ذلك إلى حياته العامة فى السياسة والمحاماة .

أما فى السياسة فقد ظل ينتخب نائباً عن سنجمون ، كلما تجدد الانتخاب ، حتى لقد ظفر بثقة الناس أربع مرات متوالية . وأما فى المحاماة فقد تركه شريكه ستيوارت إلى وشنطون حيث اتخذ مقعده فى المجلس العام للولايات ؛ فعمل مع شريك آخر قبل زواجه من مارى بثلاث سنوات ؛ وكان هذا الشريك يدعى لوجان ، وكان لوجان من أكبر المحامين شهرة فى المدينة ، وكان له من صفات النظام والدقة والإلمام بأوضاع المهنة ومطالبها ما كان يعوز صاحبه لنكولن . وكانت له فى العمل الرياسة . ورضى لنكولن بمكانه منه ولم يجد فى ذلك غضاضة إذ لم يكن منه بد ؛ وأخذ يتعلم عنه ويكتسب بمصاحبته المرانة والخبرة ؛ وهو قانع بنصيبه من الأجر ، وإن كان يرى من زميله أنه لا يعدل فى ذلك وإن كان لا يميل كل الميل . ولم يكن ثمت ما يحول دون استمرارهما معاً لولا أن فرقت بينهما ريح السياسة إذ كان كل منهما ينتمى إلى حزب يخالف حزب الآخر ...

ولما قضى الأمر بينه وبين لوجان ، اتخذ له زميلاً آخر . وكان هذا الزميل شاباً دونه فى العمر بعشرة أعوام اسمه هرندن . وكان هرندن هذا من أشد الناس إعجاباً بأبراهام ومن أعظمهم محبة له وإكباراً ، فتوثقت عرى الصداقة بينهما . وكانت لأبراهام الرياسة هذه المرة ، وعظمت ثقة كل من الرجلين بصاحبه . وكان أصغرهما موفور الحظ من النشاط والذكاء ، كما كان كزميله فى مذهبه السياسى ومن الداعين إلى القضاء على العبيد ...

وعرف إبراهام فى المحاماة بما لم يعرف به أحد قبله فى المدينة ؛ فهو بسيط فى كل شىء ، يجعل الأمر أمر ذمة وإخلاص قبل أن يكون أمر قانون ومغالبة ؛ وينظر فى تنازع الناس نظرات يوحى بها قلبه قبل أن يرسمها عقله . يرد كل شىء إلى طبيعته إذ كان يقيس الأمور بما كان يدور فى نفسه ، ولا يتردد أن يفصل بين المتنازعين بما لو فكر فيه غيره لعده من ضروب الخيال والوهم ... ولكن لنكولن كان له من إنسانيته خير سند ، ومن حسن طويته خيرها

جاءه ذات مرة رجل يطلب إليه أن يدافع عنه ليرد له مبلغاً من المال عند خصم له ؛ فلما سمع لنكولن قضيته قال : « إنى أستطيع أن أربح قضيتك وأعيد إليك تلك الدولارات الستمائة ، ولكنى إن فعلت ذلك جلبت الشقاء إلى أسرة أمينة ، ولن

أستطيع أن أتبين سبيلي إلى ذلك . لذلك أحس فيّ الميل إلى أن أنصرف عن قضيتك وأجرك . على أني أبثك نصيحة لا أسألك عليها أجراً : إذهب إلى بيتك ففكر في طريقة نزيهة تكسب بها ستمائة دولار » ... بذلك وبأمثاله اتخذ أيب الأمين سبيله إلى قلوب الناس ، فما منهم إلا مكبره ومحبه . وكان الناس يجيئونه ليحكموه فيما شجر بينهم ، وكلا الخصمين يعلن أنه راض بما يقول سلفاً ؛ وسرعان ما كان يحسم النزاع بينهم كأنهم منه حيال قاض لا محام ! وهو لا يسألهم أجرا على ذلك ، وحسبه من الأجر منزلته في قلوبهم ...

وكان يرفع الكلفة بينه وبين الناس كأنه أحدهم مهما كانت درجتهم ؛ وكذلك كان يفعل مع صاحبه هرندن ، فهو لا يستحي أن يسأله ويستفهمه أن أشكل عليه أمر أو التوت عليه فكرة كأنه تابعه ! فإذا ساق إليه الله رزقاً عده وقسمه نصفين ونادى صاحبه : « هذا نصفك » ؛ كل ذلك دون أن يكتب شيئاً أو يطلب من صاحبه كتابة ، فما كانت بهما حاجة إلى ذلك وكلاهما يبذل من الأخلاص والود بقدر ما يبذل صديقه

وكان صديقه يراه الناس في المحكمة يدس أوراقه في جيبه حتى لينبعج وينتفخ ، ويرونه يدسها في قبعته كأنه يجعل منها قبعة وحقيبة . كان لا يعنى في شيء بمظهر وإن حرص كل الحرص في كل شيء على الجوهر ... وكان في عمله كما كان في منزله ، يأبى إلا أن يرسل النفس على سجيتها ؛ وسيظل كذلك حتى تتحقق له كبرى الرياسات .. ولله ما كان أعظم تلك البساطة منه في كل شيء ! وهل ثمت بين المتكاف المتصنع وبين الصعلوك من كبير فرق ؟ إن أمرهما واحد فيما أرى وإن بلغ من تمويه أولهما ما يكفي لأن يحجب عن الأعين حقيقته ...

(يتبع) الخفيف

حلبي يزور باريس

في سنة ١٨٦٧

للدكتور حسين فوزي

تتمة ما نشر في العدد ٢٤٥

وينتقل بنا الخواجا فرنسيس من أشور لمصر ليونان لروما ، فيقول في فلاسفة الإغريق :

فذاك أريسطو وذا إقليدس ذو منطق هـذا وذا مهندس

وهو ذا سقراط ذاك الأنفس من كان للآداب دوماً يغرس

ثم يكون من سوء حظ ديوجنيس أن يجيء في الشطرة الخامسة ، فتسلبه القافية الرائية مصباحه ، ولا يبقى له من فلسفته الكابتة إلا أن يكون :

وذا ديوجنيس ذو التعرّي !

ورحالتنا رجل حساس بجمال فن التصوير ، فهو يأمرنا :

أن نعرج نحو مكان الصور حتى نرى أجمل صنع البشر

حيث عينه الفنانة لا تخفى عليها خافية :

فهاك كل بطل مبلرز يلوح في أعضائه البوارز

وكل خود ذات طرف غامز وأجفن عن الهوى روامز

وطلعة تخسف وجه البدر

لاشك أنك تعبت من التجوال — أو من الشعر ! — والخواجا فرنسيس يشعر بذلك تواً ، فهو يلاحقك بشعره الفلسفي إذ يقول :

تبا لنفس حظها يصرعها وكل مايلزها (كذا!) يلذعها

آفتهـا تضجر يتبعهـا فأينما سارت أتى يصفعها

وربما يلحقهـا للقبر

أظن أننا لن ننتهي بسلام من خمسمائية المعلم فرنسيس ، وقد تكفي الإشارة إلى أنه ينتقل بك فيها من حديقة «اللوكسمبور» إلى متحف « كلسوني » ومن دار البلدية إلى « بولفار ميخائيل إلى لقا ينبوعه الجميل » . ولا ينسى أن يعرج بك على حديقة النبات ومتحف التاريخ الطبيعي حيث يدور بك شعراً في أقسامه من الجيولوجيا ، إلى المعادن ، إلى النبات ، إلى الحيوان . ثم هو

يأخذ بيدك إلى متحف « الفنون والصناعات » ، وينتهي بك إلى باريس في الليل حيث يرى « الكل يمشون بها أزواجاً — ويدخلون في الصفا أفواجاً »

والآن وقد اجتزنا محنة شعر الخواجا فرنسيس ، يمكننا أن نتمتع دون وجل ببقية نثره . فنعود إليه في أول وصوله إلى باريس عند « انفلاق الصباح » تلك المدينة ذات الشوارع « رحبة العرض ، مستقيمة الطول ، حسنة التمهيد والتخطيط ... جامعة لكل شروط النظافة والاتقان . فلا يقوم هناك للجيف الطاعونية انبعاث ، ولا للأقزار (كذا) الوبائية حشر » — لاشك أن صورة عمران العثمانيين لسوريا ماثلة لعين الحلبيّ المسكين وهو يكتب هذه الفقرة !

ودخل رحالتنا إلى مسارح باريس التمثيلية منها والغنائية ، فوجد الفرنسيين فيها « جامعين إلى دست واحد ما تفرقت قطعه في رقاع السنين . وهكذا يحلون هذه الاستحضارات (ليفكرنّ صاحبنا بالمندل) والاستظهارات بقلايد الآداب ، وفصاحة اللغة ويرخمونها بآلات الطرب وحسن الصوت ، بحيث أن المشاهد لا يعود يدري بأي حاسة يستقبل وقوع الطرب (بحاسة الشم غالباً !) أبعينه أم بأذنه . فيرحل حاملا في دماغه نهاراً من الأدوار الأدبية ، وفي أعينه انبهاراً من الأضواء الطبيعية ، وفي قلبه أنهاراً من ينابيع الطرب والحبور »

ولا شك أن ضوضاء باريس في سنة ١٨٦٧ كانت شديدة على آذان هذا الحلبيّ — ليت شعري ماذا يقول لو عاد إلى باريس سنة ١٩٣٨ ! — « حينما تكون الأعين راتعة في تلك الآفاق الزاهرة ، تكون الآذان عرضة لالتطام تموجات الضوضاء الباريسية ، واصطدام تلك الرجات التي تبتلع لعلمات الرعود ، وتهتضم طلقات الصواعق . فهناك ألوف المركبات مندفعة على الدوام اندفاع الأمواج إزاء مهب العواصف ، وألوف صنوف العربات منسحبة وراء خيولها الجامحة (تصور ألوف الخيول الجامحة وسط المدينة العامرة !) انسحاب السحاب بأزمة الرياح »

وعن العمل والعمال والنشاط البادي في كل مظاهر الحياة : « وهناك لا يفتر صياح ربوات أعمال الأيدي مطلوقاً من أفواه الآلات والأجهزة ، ولا تكف ألوف المعامل البخارية صافرة بأبواقها النارية لتدعو فرسان العقول — لاحظ اللغة التصويرية ! — إلى مواصلة النزال في حومة الابداع والاختراع ، تسديداً لواجبات القرائح ، وتشييداً لنظام الجماعة . وهناك الجميع يجرون إلى الأمام ، الجميع يحركون ، الجميع يتسارعون ، الجميع يشتغلون ، الجميع متعاضدون سوية ، منضمون إلى قوة واحدة ، للركض إلى اقتحام كل المصاعب ، والوصول إلى قمة الكمال والجمال ... فكم سرور واندهاش للأعين إذاً ، عند ما ترى هذه الأمة الفرنساوية تتموج على بعضها كقصمة واحدة ، بدون نزاع في جزئياتها ، ولا انقسام في كلياتها ، سابحة في بحور الأمن والسلام ، بدون خوف من واثب أجنبي أو حسود غادر » ونسي الخواجا فرنسيس سياسياً في برلين اسمه بسمارك يتربص بفرنسا ؛ ويرسل « أولان » بروسيا يقتحمون باريس بعد أربع سنوات من كلامه عن « الواثب الأجنبي ، والحسود الغادر » ، ويعقدون تاج الأمبراطورية الألمانية على رأس غليوم الأول في قصر فرساي . لذا واصل رحالتنا كلامه عن « عدم خوف الأمة الفرنساوية من وحش مفترس ، أو جبار مختلس — بالذات ! — رافلة بأذيال الحرية الكاملة » — في عهد الأمبراطور نابليون الثالث تلك الحرية الكاملة !

أما عن أنوار باريس — ويقينا إن باريس كانت جديرة باسم « مدينة النور » حتى في ذلك الوقت — فالخواجا يحدثنا عن « الأنوار الغازية المندفعة من أفواه ربوات أنابيبها تحت أشكال ألسنَ نارية تدعو باردي الروح إلى الدخول في كرة التمدن المتوقدة بلهيب الحكمة والآداب »

ورحالتنا الحلبي مدرك تمام الادراك أن « كل هذا الجمال العجيب والكمال الغريب الذي رقت إليه هذه المدينة المعظمة » إنما هو نتيجة ارتقاء « العقل عندهم في طريق التقدم والنجاح ، ولم يصعد العقل إلى القمة العالية إلا بدرج المدارس التي لا يفتر تشييدها ، ولا يكف نظامها . فيوجد عندهم لكل قسم من العلوم مدرسة تحيط به وتجمع شمله جمعاً لا يقبل التفريق »

ثم هم « أقاموا في كل جانب من المدينة مكتبة عظيمة ، معدة لقبول الجمهور مطلقاً . فيدخلون الناس إليها أفواجاً ، ويقرأون ما يريدون ، وينسخون ما يشتهون بكل راحة وهدوء بال ...

ولما كان يوجد جانب كبير من العلوم يستلزم كونه عملياً وعيانياً بعد كونه نظرياً ، فقد شادوا لذلك محلات مخصوصة يسمونها بالموزيوم ، وأشحنوها من كل المواد الضرورية لدراسة موضوعها »

وقد وجـدها الخواجا فرنسيس مقسمة إلى ما يشتمل على « الاستحضارات التاريخية جيلاً فجيلاً ، وأمة فأمة ، إن يكن بالنظر إلى أعمال الأيدى ، أو إلى الأديان والعقايد ، أو إلى العادات .. وما يشتمل على المواد التى يتألف منها جسم الأرض وما يشتمل منها على الأجسام المشرحة مع كل أعضائها وأجهزتها حيث يتأمل الانسان كل نواميس نموه منـذ كونه دودة وليس بانسان ، إلى كونه إنساناً عظيما ... وما يشتمل على العالم النباتى بكل طوايفه ... أو العالم الحيوانى بكل أجناسه وأنواعه ... حتى يدرك نظام حيوة كل نوع وفرد ، فيعلم أخيراً أن الحيوان كلما انتصب هيكله ارتفع نوعه . حتى إذا ما وقع رأسـه عموداً على محور سلسلته كان إنساناً »

وقد رأى أن « هجوم الناس على العلوم والمعارف يشبه انحدار الغدران من أعالى الجبال . فترى الآباء يسرعون إلى وضع أولادهم فى المكاتب حالا بعد فطامهم (أى والله !) . »

ومن أدق ما لاحظه المعلم فرنسيس اهتمام الفرنسيين بدراسة لغتهم ، إذ يجب « أن يعلم كل منهم قواعد لغته وفهم أصولها . والذى يجهل ذلك يعتبر عندهم كالحيوان العديم النطق ، لعـدم معرفته صحة النطق ... وكلما ازداد الشخص معرفة وتعمقاً بلغته ، ازداد اعتباراً وكرامة وارتقاء ، إلى أن يجعلوه قاضياً فى محكمة اللغة إقرأ : (Membre de l'Académie Française) . »

وكيف يرى الخواجا فرنسيس الحلبى كل ذلك ولا يفكر فى ضعة الشرق وانحطاطه ، أو لا يقارن بين ما ينال العالم فى فرنسا وبين ما يصيب من له فى الشرق « هوس فى العلم ، فيعيش مقطوع الخرج ، وربما يحتقر ويهـان . ولا يحصل على شيء من الجوائز سوى قول الناس عنه : هذا نحوى بارد ، أو شاعر مشعر ، أو بعرفينو ، أو فلفوس . وإذا كان يروى شيئاً من التاريخ يقول عنه : هذا حكا كاتى » . وخواجتنا العلامة لا يدعك تتساءل عن أصل هـذه الكلمات ، فهو يفتح قوساً ليقول لك بأنه « يوجد كثيرون يقلبون شـاعر إلى مشعر ، وعارف إلى بعرفينو ، وفيلسوف إلى فلفوس ، وحكاياتى (كذا !) إلى حكا كاتى ! »

ولقد لاحظ رحالتنا والألم يحز فى فؤاده أن مركز الطلبـة غير محترم فى باريس . وتفسير ذلك عنده « أنه مالم يحصل الدارس أولا على شهادة مدرسية ، فانه لا يمكنه الحصول على ثمرة دراسته وجائزة أتعابه . كما أنه بدون رنين هذه الشهادة لا يسمع أحد به ، فلا يوجد له اعتبار ، وربما كان ساقطاً من أعين الناس لكونه دارساً . سيما إذا كان يدرس الطب أو الشريعة » . وسترى أن طلبة الطب والحقوق فى عصرنا إنمـا يحتفظون بسمعة قدمائهم السيئة . وإليك تفسير الخواجا فرنسيس ، وهو ينطبق فى بعضه على العصر الحاضر :

« وما ذاك إلا لأن صيت درسـة (طلبة) هاتين الصنعتين لا يوجد عندهم أقبح منه . ولا جرم فى شيوع هذا الصيت الردى لأنه يوجد حقيقة قسم كبير من هؤلاء الدارسين مطلوق العنان إلى ارتكاب الكبائر والجرايم ، عوض الانـكباب على الدراسة والمطالعة . فترى جماعة هـذا القسم تايهين فى عالم الشهوات ، وضاربين فى أودية المعاصى . فهم يطوون النهار ويحيون الليل ما بين الدساكر والخمـارات ومحلات الانهماك على الفساد ... فتراهم هناك مفصومى العرى ، محلولى الثياب ، مشوشى الشعر . وبرانيطهم مقلوبة إلى الوراء كأنها مجفلة من أماراتهم »

وكان من سوء حظ المعلم فرنسيس أن يشهد Chahut جامعياً فى داخل قاعة المحاضرات : « وقد شهدت شيئاً من ذلك ضـد أعظم معلمى النباتات عندهم . وهو أننى دخلت إلى القاعة المعدة للخطابات ، حينما كان المعلم مزمعاً أن يفتتح كلامه على النباتات . فرأيت المحفل مضاعف الاحتفال . أى أننى وجدت عدداً وافراً من الدارسين الذين لم أصادفهم قط فى محلات الدراسة . فحالمـا دخل المعلم لابساً ثيابه الرسمية ، وصعد على منبر الخطابة ، أخذ هؤلاء الدارسون يصيحون ضده ، ويصفرون ويزمرون ويدبدبون بأرجلهم حتى لم يتركوا له سبيلا للفظ كلمة . وكلما رأوا شـفتيه تتحرك أو تهم على الحركة أزادوا الضوضاء والصراخات . وفى أثناء ذلك دخل رئيس المدرسة نفسه ليرجوهم أن يستمعوا لهذا المعلم . فما نجم عن دخوله سوى تضاعف مربع الحركة ، ولم يلبثوا أن هبط الخطيب من منبره فانفض المجلس » .

لا حاجة إلى وصف الخواجا فرنسيس بأنه رجل ساذج فقد « عرته حينئذ جودة البهتة وصار مهوى لتيار الاقشمرار ، وكان

قلبه يقابل ارتجاف المحل بارتجاف الرعدة » . ولدى خروجه سأل البعض عن « سبب اندفاع هذا البركان البالغ » ، فقيل له إن هؤلاء الدَّرَسة يمقتون كل معلم يدقق مسايل الامتحان لكونهم لا يدرسون إلا نادراً وقليلاً . ولذلك يريدون عزل هـذا المعلم أو تنكيس أعلامه لشدة تدقيقه عليهم فى الامتحان النباتى بحيث لا يمكنهم احتمال ذلك لضعف دراستهم » . ويغلب على ظنى أن السبب فى هذا الـ Chahut كان سياسيًّا . وأقرب الحوادث من نوعه إلى أذهاننا مظاهرة طلبة الحقوق ضد البروفسور جيز أيام كان يدافع عن قضية النجاشى فى عصـبة الأمم . نعم إن قسوة الأستاذ فى الامتحان ربما ساعدت على تظاهر الطلبة ، ولـكنها لا يمكن أن تكون سبباً بعينها . وما رآه الخواجا فرنسيس يرجع فى ظنى إلى الشعور الجمهوري الذى كان ينفجر من آن لآخر بعد قلب الجمهورية الثانية وتنصيب البرنس نابليون إمبراطوراً باسم نابليون الثالث

وواضح أن الخواجا فرنسيس رجل قليل التسامح . فهو الدارس — برغم الثلاثين وبلّغها — يجارى الرأى العام فى الزراية بالدَّرسة حتى لينتقد لباسهم . ولا شك أن هذا الحلبى لابس القنباز كان آخر الناس أهلية للحكم على لباس الطلبـة فى باريس ؛ وهذا الشرقى كان آخر من يحق له أن يحجر على حرية الطالب الباريسى ؛ ومع ذلك يقول : « والنظر الساذج إلى أولئك الدارسين يوشى بقبح سلوكهم ، لأن ملابسهم تعبر عن منافسهم ، فهم يلبسون بنطلونات هكذا ضيقة حتى تكاد تتمزق بين أفخاذهم ، وسترات هكذا قصيرة حتى لا تخفى شيئاً من الإليتين إلا قليلاً ، وشمورهم طويلة منفوشة ، وبرانيطهم عريضة كثيرة الانفراج هضيمة الـكشح . وكلما كانت البرنيطة تامة فى هذا الشكل كان صاحبها أكثر تقدماً فى ذلك الضرب ، حتى تخال البعض من هـذه البرانيط نظير غمامة سوداء على رأس حاملها ، فمتى لاح هكذا شخص قال الناس : هو ذا الدارس ! »

فالمعلم فرنسيس يأسف على وجود « هكذا سرب بين دُرُس الطب والشريعة أوجب سقوط الجميع من أعين العامة مدة الدراسة مع أن جماعة القسم الأكبر — والذى عليه المعول — لا يسلكون تلك الطريق ، بل يسيرون فى سبيل مضاد على الخط المستقيم ، وعوض أن يطفئوا بمياه الشباب لهبات الشهوات إنما يستقطرونها بأنابيق أدمغتهم المضطرمة بنار الاجتهاد والحمية »

ويستطرق رحالتنا من كلام عن الدرسة المجتهدين إلى ختام وصفه النثرى لباريس حيث له حديث طويل عن « بحار التمدن المتدفقة من محابر رجالها ، وأنهـار الأدب جارية من ينابيع أفكارهم » وعن « ممالك الأباطيل والأضاليل ، وعروش الحقائق والهدى » . ثم يتحدث فى لغة سامية عن الفكر « وقوته التى تغلب جميع القوات ، ولا تعرف رادًّا إذا جمحت ، ولا صادماً إذا اندفعت » . ويضرب لهذه القوة أمثلة أجاد اختيارها حقاً ، فهو يقول : « أى قوة أوقفت حركة الأرض بعد ما أدارها غالليلى (جاليليو) على محورها ، ودفعها تكر على محيط دايرة البروج . وأى قوة هدمت بناية الإصلاح بعـد ما أشادها فكرهوس (Jean Hiiss, de Prague) . وأى قوة أوقفت دوران الدم فى أوعيته بعد ما أجراه فكرهارفى (Horvey) . مع أن ذلك حبس وذاك حرق (جان هوس أحرق على ما أذكر) وذا اضطهد »

« ولما عرف بنو المغرب كونهم محملين بقوة الفكر ، أخذوا يهذبونها ويثقفونها ، ويستظهرون نتائجها بدون التفات إلى تهديدات المغرضين ، أو معارضات المبغضين » . وبذلك « بلغوا هذا المبلغ العظيم من الفلاح والنجاح ، وتركوا بقية العالم يتقهقر وراءهم ، ويتساقط تحت أحمال كبرائه ، وأثقال ثقلائه ، فاقد التفـكير وعديم النطق »

وهذه الإشارة المستترة إلى « تساقط الشرق تحت أحمال كبرائه وأثقال ثقلائه ، فاقد الفكر وعديم النطق » تشترى كل كبوات الأسلوب عند الخواجا فرنسيس ، فهو رجل سليم التفكير جدير بالتهنئة على كتابه الساذج ، ولو أن هذه التهنئة « تشيح بوجهها » أمام شعره . وإذا كان نثره « يصدمنا » بصوره العنيفة المزدحمة ، فإن خلوه من التسجيع الذى كان ضرورة من ضرورات الـكتابة فى عصره ، يشهد للخواجا فرنسيس بروح استقلالية مشكورة ، كنا نود أن نراها تعمل على إقصائه نهائياً عن الشعر بعد أن عصمته من السجع

ويختتم الرحالة كتابه بفصل إضافى عن معرض باريس العام فى سنة ١٨٦٧ . ولـكن هذا الفصل لا يمكن أن نزيد معرفتنا بالخواجا فرنسيس ... حتى ولا بذلك المعرض

حسين فوزى

ربيـــع !

للأديب صلاح الأسير

« إلى الأستاذ أمين نخلة »

حَلِمَ الوردُ بالصباحِ ، وجُنَّ الـــغصنُ شوقاً لزقزقاتِ الطيورِ
وارتمى العصفُ حائراً يتلوّى في دروبٍ محفوفةٍ بالعطورِ
يرقبُ القاصفَ السخيَّ من الرعـــدِ ترامى على يدِ الزمهريرِ
ورُؤى النورِ هوّمتْ في الروابي تحملُ الفجرَ في الفم المقرور
أتعبتها الرياحُ ، أتعبها البر دُ فلاحتْ مزرورقاتِ الثغور
فإذا الغابُ قطعةٌ من سوادٍ وإذا الأفقُ مكفهرُّ الستورِ
وإذا الناسُ تائهون حيارى رهبوا غمرة الظلام الضرير
وإذا النهرُ صاخبٌ يدفعُ الصخـــرَ ، ويرمى بنفسه في الصخور

* * *

وتراءى الربيعُ ، في الرونقِ الضا حي سخيَّ الأجواء رحبَ المرادِ
يزرعُ الدفءَ في الفضاء ويهفو خاضباً بالطيوبِ وجهَ الوهادِ
ويريقُ الهناءَ ملءَ مرادِ الـ أرضِ خصباً وملءَ ظنِّ العبادِ
فترى الدوحَ واثباً في الأعالي أخضرَ الزهو ضاحكَ الميلادِ
يحضنُ الطائرَ الذى ضاق ذرعاً ببروقِ الشتاء والأرعاد
ويطيبُ الهواءُ في موكبِ الصحـــوِ ويسرى العبيرُ في كلِّ وادِ
فترى الغابَ نضرةً والورودَ الـــحمرَ عرساً يغصُّ بالأورادِ
وإذا الـكونُ حالمُ النعمِ الخضـــرِ تعالت صلاته في النجادِ

* * *

يا بنات الربيع غنينَ أحلا مي وغنينَ بالهوى والهناء
واستبقنَ الشعاعَ في الروضِ والثمـــنَ خفافاً بواكرَ الأنداء
ماترينَ الفراشَ يرقصُ في الز هرِ خفوق الجناح غضَّ الرواء
واثباً يلتقى المنى تتهادى دون أجوائه الرحابِ النوائى
والنسيمُ النديُّ ينفحُ بالطيـــبِ وجوه العرائس الزهراء
يا بنات الربيع رفرفن في الجوِّ وداعبنَ رفرفاتِ الهواء
والتقين الربى تضيعُ بها العـــينُ نداءً لغفوةٍ خضراء
فكرةٌ أنتِ حارَ في فهمها الـكو نُ وأعيا بها رحيبُ الفضاء

* * *

ياربيعي تنامُ أنتَ وفي الـكو نِ ربيعٌ يموج حلوَ البرودِ
وعذارى الربيع في القرية الولـــهى يغنين خافقاتِ النهودِ
يا ربيعي أفقْ ودعْ لى صباحى تائهاً في رحابه والنجودِ
حالمٌ ألتقيكَ في ولهِ الحـــيرةِ رؤيا على الربيع الجديد
أنتَ منى هوايَ أنت أغانيَّ وحلمٌ رأيتُ قبلَ وجودي
أنتَ طيفُ الإلهِ في عالمى البكـــرِ وأسطورة الزمان البعيدِ
قمْ بنا نحضنُ الربيع وأغدو في ربيعين ، يافعٍ ووليد
وأنا ابنُ الربيعِ إلفُ الضياءِ السـمحِ وابنُ الجمالِ ، تربُ الخلودِ

« بيروت » صلاح الاسير

إلى ...

للأستاذ ابراهيم العريض

تعالَيْ فان الليلَ يبسطُ ظله لكى يتملّى ناشئُ الزهرِ حِلَّه
وإن فؤادى برعُمٌ في يدِ الصبا سأعدمُ نشراً منه إن لم أطله
وثَمّتَ سرٌّ كامنٌ فيه كالشذا ولم أتنشّقْ منه إلا أقله
طوى باكياً كالزهرِ أوّلَ صفحةٍ من العمرِ حتّى يضحكَ العمرَ كله
ولحنٍ كترجيع الرباب إذا انثنى عليه بخمسٍ مُطربٌ فاستهله
يوقّعه قلبى على وترِ الهوى تباعاً ... فأقضى ليلتى أتوله
ولا من نجيٍّ إذ أحاولَ بثّه كأحسنِ مابثَّ المحبُّ هوًى له
سوى شبحٍ أن يطرفِ العينَ لمحه أينكرُ دمعى في الضلوع محله

ابراهيم العريض



شارلس لام يروى عن شاكسبير (١)

قصة الشتاء

للأستاذ دريني خشبة

أحب ليونتس ملك صقلية زوجه الحسناء الفاضلة هرميون حباً يقرب من العبادة

وكان صديقه پوليكسينز ملك بوهيميا أحب الناس إليه بعد هرميون ، لأنه رفيق الصبا وخدن الشباب وزميل المدرسة ... فلما فصلت الأيام بينهما لارتقائهما أريكة الملك ، ظلا يسقيان فروض الصداقة ، ويرعيان عهود المودة ، ويتبادلان الهدايا والتذكارات والُلهى

ثم دعا ليونتس صديقه لزيارته ، وألح فى دعوته ، فأقبل پوليكسينز ليحل ضيفاً على البلاط الصقلى ، ولقيه الملك لقاء المشوق المستهام ، وقدمه إلى زوجه هرميون أعز صديق بل أعز شقيق

وأخذا يتنادران فى النهار و يسمران فى الليل ، ويقص أحدهما على الآخر ذكرياته ، ويستعيدان مُلَح الطفولة ورقائقها ، ويستعرضان صور الشباب الوارف الفينان ، وهرميون أثناء ذلك تصغى إليهما وتقبل على حديثهما وتسر به ، وكان زوجها يوصيها خيراً بضيفه فكانت تحتفى به ، وتبتكر الأساليب لإدخال السرور على نفسه

واستأذن ملك بوهيميا صديقه فى الأوبة ، فأبى ملك صقلية إلا أن يَتلبّث ... فألح ملك بوهيميا وأبى إلا أن يعود ... وهنا سأل ليونتس زوجه هرميون أن تطلب إلى پوليكسينز أن يبقى ... فلما فعلت لبّى ملك بوهيميا ، ونزل عند رجائها ، وأجل سفره إلى موعد آخر

وا أسفاه !!

لقد نفثت ثعابين الغيرة سمومها فى قلب الملك ، واحتلكت الحياة فى عينيه ، ولم يفتأ يسائل نفسه لِمَ قَبِل ملك بوهيميا رجاء هرميون بمجرد أن كلمته ، مع أنه لم يقبل رجاءه هو ؟ !

« إن فى الأمر شيئاً ، وإن وراء الأكمة ما وراءها .. هذا لا ريب فيه ! لقد زاد عطف هرميون على هذا الضيف الثقيل ، حتى شككت فى أن يكون العطف حباً ... وهذه النظرات التى كانا يتخالسانها فى حضرتى ... وهذه الضحكات الفضية التى كانت هرميون تسقسق بها فى هواء المكان الذى كان يجمعنا وپوليكسينز ... ! »

وعلى هذا النحو راح الملك يجتر شكوكه ويوسع آفاقها ويلقى فى نارها وقود الظن حتى أنضجت فؤاده ، وحتى غدا بسببها وحشاً مغيظاً محنقاً ، ينظر إلى هرميون الجميلة المفتان الحَصان الطهور ، نظرته إلى المرأة الفاسقة المسافحة الهلوك وينظر إلى صديقه العف الحبيب ، كما ينظر إلى عدوه الفاجر اللدود

وأرسل الملك إلى أحد رجالات بلاطه — السيد كاميللو — فبث إليه خبيئة صدره ، وأمره أن يدس السم لملك بوهيميا فى طعامه

وشاءت العناية ألا يمتثل كاميللو أمر مولاه ، وشاءت كذلك أن يأتى كاميللو بالسر كله إلى ملك بوهيميا ، وأن يحذره مغبة البقاء فى ضيافة ليونتس ؛ فيدبران الأمر معاً ، ويفران فى جنح الظلام إلى بوهيميا

ويثور ثائر الملك لهذا الفرار ، ويكبر فى روعه فيكون برهاناً جديداً لما دار فى خلده من شكوك وريب ، فيذهب من فوره إلى مخدع الملكة ، حيث جلست تصغى إلى قصة ظريفة يلقيها عليها ابنها مارميللوس ... الطفل اليافع الجميل ...

وكان الملك مقطب الجبين عابس الوجه ، يضطرب فى قلبه بركان من الغضب ، وتتدفق فى أعصابه سيول من الُحمم ، فتقدم كالوحش المجروح فانتزع مارميللوس ، وأسلمه لمن يعنى به ... ثم أمر فسيقت الملكة إلى غيابة السجن

(١) خدم شارلس لام وأخته ماري لامب أدب شاكسبير بتلخيصه نثراً ليسهل تناوله على القراء . ونحسب أن قراء العربية أولى بذلك من الانجليز وها نحن أولاء نضع بين أيديهم (قصة الشتاء) نموذجا لما فعل شارلس ، وهى من أمتع درامات شاكسبير التي يمزج فيها الخيال بالواقع ، والأسطورة بالحقيقة

وأرسل الملك سيدين من رجاله — كليومين وديون — إلى دِلْفوس ليستوحيا له كهنة أبوللو فى أمر زوجته ، وفى حقيقة ما اتهمها به ... هل صحيح أنها خانته مع صديقه ، أم هى براء من هذه الجريمة الشنعاء ؟

* * *

فى تلك اللجة من الدموع ، وفى هذا الليل الزاخر من الأحزان ، وضعت هرميون فى سجنها السحيق أنثى ... كانت سلوى باكية لأمها المسجونة ؟

وهكذا ضم السجن ضحيةً أخرى ... مولودة شقية لا ذنب لها ولا جريرة ولا إثم ... أرسلتها المقادير إلى هذه الدنيا المعوجة القاسية لتكون حياتها مأساة !

وكان للملكة صديقة من نساء سادة البلاط تحبها وتخلص لها الود ، تدعى ليدى بولينا ، زوجة أنتيجونوس الصقلى

فلما علمت بما أجاء الملكة فى سجنها من المخاض ، وما تلا المخاض من وضع ، ترقرقت دموع الألم فى أغوار قلبها من أجل مولاتها ، وانطلقت إلى السجن خفية ، فقالت لليدى أميليا ؛ السيدة الطيبة القلب المنوط بهـا السهر على الملكة : « أحسبك ياعزيزتى الليدى تشركيننى فى الألم لما أصاب الملكة ! » فلم يكن إلا أن تفجرت الدموع من عينى أميليا جواباً على ما قالت بولينا .. فقالت لها وقد سرها ما رأت من بكائها : « إذن تذكرين لها أننى هنا ... وأننى مستعدة لأن أذهب بالطفلة إلى الملك فأدافع عن هرميون ، وألقى إليه بابنته عسى إن هو رآها أن ترقق ما قسى من قلبه ، وتنير ما تدجّى من نفسه ، وتظهر له ما خفى عليه من برهان ربه » فأجهشت أميليا ، ودعت للسيدة ، وشكرت لها مجازفتها ، ثم ذكرت أن الملكة كانت تفكر فى مثل هذا

ودفعت الملكة بطفلتها إلى بولينا فذهبت بها إلى الملك رغم ماحذرها به زوجها من مغبة الإقدام على هذا الجنون ، خشية أن يُبطش بها ؛ فلما مثلت بين يديه كشفت عن المولودة البائسة فصاحت وأعولت ، ثم وضعتها عند قدميه ، وانطلقت تدفع عن صديقتها الملكة ما رماها به من الفحش ، وطلبت إليه أن يرحم الطفلة بالعطف على أمها ... وكانت تتدفق فى دفاعها كالسيل ، وترق فى استعطافها كالنسيم ، ساكبةً أثناء هذا وذاك دموعها تنثرها على كلماتها ، وتنضح بها عباراتها ، عسى أن يلين فؤاد الملك

ولكن الملك وا أسفاه لم يزدد إلا عتوًّا ولم يزده ما صنعت بولينا إلا استكباراً ، فأمر زوجها أن يذهب بها من بلاطه ... وأن يتركاه إلى شيطانه

ثم دعا الملك إليـه أنتيجونوس — وهو زوج بولينا — فأمره أن يحمل الطفلة إلى البحر ، وأن يقلع بهـا ليتركها عند أول شاطئٍ وديعةً مظلومة بين أيدى القضاء والقدر

وأتمر الرجل الغبى بأمر الملك ، فحمل المولودة فى يديه الجبارتين ، وألقاها على صدره الصخرى ، ومضى بها إلى ... البحر !

وهكذا فصـل الملك بينه وبين قطعة فؤاده فى ثورة الغضب الجامح ، غير منتظر عودة رسوليه بنبوءة أبوللو من دلفوس

ولم يكن بحسبه هذا ، بل أمر بقضاة المملكة وذوى الرأى فيها فاجتمعوا فى حشد عظيم لمحاكمة الملكة .. لمحاكمة هرميون .. بأعين الرعية ، وعلى ملأٍ من الجمهور

ولغطت ألسن السوء بما اتهم به الملك زوجته ، وراجت شائعات الضلالة ، وأهرع الناس من كل فج ليشهدوا مليكتهم التقية النقية تقف موقف الاتهام الوضيع ، والشك المزري ، ثم لتسمع بعد هذا الحكم الذى لا تدرى هل يكون عليها أم لها

وصمت الناس حتى لكأن على رؤوسهم الطير

وجلس القضاة فوق المنصة الكبرى وليس فى خد أحدهم قطرة من دم

وصدئ البريق فى عيونهم فانبعثت منها ظلمات من ورائها ظلمات !

وفغر الناس أفواههم حين شاهدوا الملكة المظلومة تبكي ، وهى برغم بكائها جميلة فينانة ريانة رائعة ... لأنها بريئة

وحضر الملك فلم يتحرك أحد للقائه ... وجلس فوق عرشه الصَّلف ، وأخذت نظراته تزيغ هنا ، ثم تشرد هناك ... كنظرات الذئب قد فجأه ضبع ! !

وحينما دق كبير القضاة بيـده على المنضدة مؤذناً ببدء المحاكمة ، شهد الناس سيدين من خيرة ساداتهم يشقان الجموع المحتشدة ، ويذهبان إلى هيئة المحاكمة صمدا ، ثم يتجهان ناحية الملك

أوه ! ! إنهما كليومين وديون قد عادا من دلفى !

تُرى ماذا فى هـذا الظرف الكبير المختوم بخاتم كاهن أبوللو الأكبر ؟ !

قال الملك : « افتح يا كليومين باذنى ، واتلُ على الناس نبوءة دلفى ! !

وفض كليومين الظرف الكبير ، ونشر الصحيفة البردية ، وراح يتلو :

« بريئة هرميون »

« لا وزر على پوليكسينز »

« كاميللو من الرعايا المخلصين »

« ليونتس ظالم غيران[1] »

« سيعيش الملك بلا وارث إن لم تعد طفلته المفقودة ! ! »

وتبسم الملك مستهزئاً ، وظن أن النبوءة رجس من عمل هرميون وتلفيق أصدقائها ، ثم أمر القاضي الأكبر أن يأخذ في المحاكمة ليتبين الرشد من الغي

وحينما دق القاضي بيده مؤذناً بدء المحاكمة ، إذا رجل طويل يقدم حتى يقف تلقاء الملك وهو يلهث ، فيقول

— مولاي ! الأمير يا مولاي ! ماميللوس !

— ماله يا رجل ؟

— ما ... ما ... ت ! !

— مات ؟ وله ؟

— حزناً على أمه الملكة يا مولاي ! لقد هاله أن تقف هذا الموقف لتفضح ظلماً في شرفها وعرضها ... آه ياحبيبي الأمير ... آه يا أعز الناس علىّ ! ! »

وزاغت الأبصار كلها ... واستخرط الناس في البكاء ... ووجم القضاة فلم ينبسوا بكلمة

أما الملكة ، أما هرميون المسكينة ، فقد ذاب قلبها ، ووهى جلدها ، ولم تطق أن تسمع أن ولدها الوحيد الحبيب قد لفظ نفسه الأخير وجداً عليها ، ورثاء لها ، فنظرت إلى الدنيا كأنها تسوخ تحت قدميها ، وإلى السماء كأنها تطوى من فوقها ، وإلى الناس كأنهم عيون ودموع وقلوب كسيرة مفجّعة ... فخرّت مغشياً عليها

وانتفض قلب الملك !

وتفجرت في أغواره شآبيب الرحمة ، وانسرقت عبرة من عينه تغلى كالمهل لتكفر عن خطيئته ... فأشار إلى پولينا ومن معها من وصيفات الملكة ، فحملنها ، وأوصاهن بها خيراً

وأخذ الجمع الحاشد يتمزق أباديد

ولم يمض غير قليل حتى عادت پولينا وفي وجهها سحابة حزينة باكية ، وفي جسمها رجفة عظيمة ، وفي عينيها دموع سخينة حرار ... وفي فمها نعي هرميون ! !

ماتت هرميون إذن ، وخلّفت هذه الدنيا السمجة الملوءة بالرذيلة وراءها ... خلفتها للملك الغيار المسكين الذي لم تنفعه أن تتحرك الشفقة في فؤاده حينما سمع بموت وليّه ماميللوس ، ولم ينتفع كذلك أن يؤمن ببراءة هرميون بعد إذ رماها بأم الموبقات

وذكر ليونتس طفلته التي نفاها وراء البحر مما جلبت عليه مظنّـةُ السوء في أمها من خبال ، فصار شجوه شجوين ، واعتاج فؤاده بهمّين ، وود لو يعطى عرشه وملكه لمن يرد إليه المولودة التي لا يعرف لها اسماً ، ولا يكاد يذكر لها رسماً

ولكن هيهات ! فهاهي ذي السنين تمر ، والأيام تكر ، والملك المسكين يتلظى بنار الشجو والشجن ، ويغص بآلام الأسى والحزن فهو من عيشه في سجن ، ومن قصره في قبر ، ومن ضميره في عناء ، ومن ذكرياته في بلاء ، ومن رعيته في شهود عليه بما قدمت يداه ! !

* * *

أما أنتيجونوس الذي ذهب بالطفلة وراء البحر ، فقد أقلع في سفينة دفعتها الرياح ، وما زالت تدفعها ، حتى أرست على شاطىء بوهيميا ! حيث يحكم الملك پوليكسينز بأمره ... وهنا ... نزل الرسول الشقي بالأميرة الصغيرة إلى البر ، وما كاد يُصعّد في حدوره حتى لمح غابة قريبة فجعل يدلف نحوها ، وفي ذراعيه الوديعة المسكينة تبكي وتصيح من الجوع ... أو ... من هذا الصدر البارد الذي لم يعرف حنان الأم ، ولم يجش فيه لبنها ومحبتها !

وتحت دوحة باسقة وارفة الظلال وضع أنتيجونوس الأميرة الصقلية ، وعاد أدراجه إلى البحر ... لكنه لم يبلغه ... وكيف يبلغه وهذا الدب المنتقم قد ترصده ، حتى إذا بعد عن الطفلة انقض عليه ، وأعمل فيه أنيابه ومخالبه ، وطهر ظهر الأرض من روحه المظلمة الظالمة التي لا تعرف الحنان !

وذهب الدب بعد إذ اغتذى وشبع

وبرز من الغابة رجل راع مجدود[1] طيب القلب كان مختبئاً ثمة من الدب ؛ وكان بكاء الطفلة يحز في صدره ويذيبه وجداً عليها ...

واحتملها في يديه الرحيمتين ، وراح ينظر في وجهها الصغير

(١) غيران ومغيار وغيور بمعنى

(١) حسن الحظ



محاضر ألماني في القاهرة

دعت كلية الآداب بالجامعة الأستاذ الدكتور أدولف جروهمان لإلقاء بعض محاضرات عن « الادارة العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة » والمحاضر من أعلام الاستشراق في ألمانيا ، وأستاذ الثقافة الاسلامية واللغات السامية بجامعة براغ بتشكوسلوفاكيا ، وهو يعني بناحية دقيقة في التاريخ الاسلامي وهي دراسة أوراق البردي العربية ، وعلى الرغم مما يكتنف هذه الناحية من البحث من الصعوبات الجمة فقد ذللها ببحوثه التي نشرها في مؤلفاته وفي المجلات الكبرى التي تعنى بالدراسات الشرقية . ومن ثم عهدت إليه الحكومة المصرية بدراسة أوراق البردى العربية المحفوظة في دار الكتب في القاهرة وهو ينوي إصدارها في سبعة مجلدات مع التعليق عليها ، نشر منها حتى الآن ثلاثة باللغة الانجليزية مع مقارنتها بأوراق البردي اليونانية المتعلقة بهذه الناحية الجديدة بالبحث في تاريخ مصر الاسلامية . وقد ترجم الجزءين الأولين منها الدكتور حسن ابراهيم أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

ويتعجب ، وينظر إلى لفائف الحرير الجميل والدمقس المفتل ويطرب .. ثم جلس ليصلح من شأنها ما علمته الأبوة الساذجة فاكتشف كنزاً من در وياقوت وجوهر ، وورقة كانت هرميون قد شبكتها في صدر ثوبها بدبوس وكتبت عليها ... برديتا ... وكلمات أخريات عرف منهن الراعي أن اسم لقيته برديتا ، وأنها من نسل الملوك الصيد

وخفق قلب الرجل واشتد وجيبه ، وابتسم للدنيا وابتسمت الدنيا له ، وطبع قبلة على جبين الطفلة فسكنت ... وهرول بها إلى كوخه ... وهناك ...

(لها بقية) دريني خشبة

وقد تناول الدكتور جروهمان في محاضرته الأولى كُوَر مصر كما كانت إبان مجيء العرب معتمداً في ذلك على ما جاء في المصادر اليونانية والسريانية وما عثر عليه في أوراق البردى العربية الموجودة في مصر وفي دور الكتب الأوربية ومكانها الكبرى كالمتحف البريطاني ومكتبة بودليان وأكسفورد وسُرْن وليبزج وغيرها

ومصر كما صورها الدكتور جروهمان في هذه المحاضرة تختلف عن مصر الحالية تمام الاختلاف في كُوَرها وبلدانها ، وتختلف عن مصر القديمة التي وصفها ستانلي ليبدبول في كتابه « سيرة القاهرة »

وألم الدكتور أدولف في المحاضرة الثانية بالجزية عند العرب وهو يسوق رأياً طريفاً في الصلة بين كلمة « جزية » و « كسية » ويتناول فيها نظام الضرائب والحركة المالية في مصر في عهد عمرو ابن العاص ومن خلفه وفي العصر الأموي

والمحاضر الدكتور جروهمان واسع الاطلاع في الثقافات العربية والأوربية الحديثة منها والقديمة ، وقد ذلل له بحثه الشائك نظرُه في كثير من المصادر الجمة في مختلف اللغات الخاصة بهذه الناحية

ميزانية التعليم في انجلترا لسنة ٣٨ — ٣٩

قدرت ميزانية التعليم في إنجلترا للعام الدراسي ٣٨ — ٣٩ بهذا الرقم العجيب : (٥١٫٠٠٢٫٣٣٠) أي بما يزيد على مجموع ميزانية الحكومة المصرية كلها بأحد عشر مليوناً من الجنيهات .. وبما يزيد على ميزانية التعليم في إنجلترا للعام المنصرم (٣٧ — ٣٨) بمبلغ ٢٫١٦١٫٤١٣ من الجنيهات ؛ وهاك بعض الأرقام العجيبة في توزيع هذه الملايين الضخمة من الجنيهات

٣٥٫٥١٣٫٠٠٠ للتعليم الأولى والابتدائى (Elementary)

١١٫٦٨٠٫٠٠٠ « العالى

٧٫٨٨٧٫٠٠٠ لماشات المدرسين

٥١٤٫٦٥٠ الرياضة البدنية والرحلات

ولم يسبق أن أرصدت إنجلترا مبلغاً كهذا للتعليم إلا فى سنة ١٩٢١ — ٢٢ وبزيادة ١٢٫٣٣٥ جنيهاً على المبلغ الحالى

مجلة لكلية الآداب

لا تكاد توجد جامعة في أوروبا أو أمريكا إلا ولجميع كلياتها مجلات راقية تمثل الحياة الجامعية وتحدد مدى النشاط الجامعي وتسجله ؛ والجامعة الأميركية المصرية تصدر مجلة التربية الحديثة مقتدية فى ذلك بجامعات أوروبا ، ولسنا ندرى ماذا يمنع كلية الآداب المصرية من إصدار صحيفة دورية وهى بهذا العمل أولى دور العلم فى مصر ؛ وهذه صحيفة دار العلوم تصدر حافلةً بالبحوث القيمة وتتبارى فيها أقلام المجدين

أما كلية اللغة العربية فقد علمنا أنها جادة فى إصدار صحيفة باسمها ... ولا غرو ، ففيها وفى دار العلوم تحيا العربية وتتجدد

ضرائب الأطيان فى مصر الرومانية

لعل كثيرين من القراء يحسبون أن بدعة تعداد الأمم هى سنة مستحدثة لم تعرفها إلا الشعوب الحديثة . لا . ليس الأمر كذلك . فقد ثبت أن قدماء المصريين كانوا أول من وضع نظام التعداد ، وكانوا يجرونه كل أربع عشرة سنة . ولم يكونوا يقتصرون على تعداد الأنفس فقط ، بل كانوا يحصون كل شيء فى الوطن المصرى : الناس والحيوان والمنازل والحدائق ودور الصناعة والمدارس والماهات ... الخ ، وكانوا يتخذون من هذا التعداد ميزاناً لفرض الضرائب التى كانت فى الغالب قاصرة على الأرض وتجارة الوارد . وكانت ضرائب الأطيان فى مصر القديمة مضبوطة عادلة ، لكنها لم تبلغ الدقة المتناهية إلا في زمن البطالسة — فلما غزا الرومان مصر اعتمدوا فى ربط الأموال على الأرض على النظام البطليموسى ، وبهرهم هذا النظام فاستعملوه فى إيطاليا وطبقوه فى كل مستعمراتهم ، مستعينين فى ذلك بموظفين من المصريين . وقد تنبه العلماء المصريون إلى هذا الموضوع فألفوا فيه كتباً جيدة وأول هذه الكتب ألفه الأستاذ ولكن سنة ١٨٩٩ ، وفى سنة ١٩٣٦ خصص له الأستاذ جونس هوبكنز مجلداً من كتابه (التخطيط الاقتصادى فى رومة القديمة) . وقد صدر هذا الشهر كتاب (الضرائب فى مصر — من عهد أغسطس إلى عهد ديوقليانوس) لمؤلفه العلامة شرمان لى روى ولاس . والكتاب يتناول غير هذا عصراً من أسود العصور التى رزحت تحتها مصر والتى كانت تعتبر فيها بقرة حلوباً للدولة المستعمرة أو كما كان يتبجح الرومان فيقولون (القمح فى مصر !) Corn in Egypt.

فتاة انكليزية تكتب عن مصر

تناولنا فى عدد مضى كتاب المستر روم لاندو (البحث عن الغد) الذى تناول فيه مؤلفه أثر التدين فى الشرق الأدنى ، وبخاصة فى مصر والأقطار العربية ، والذى نقل منه الأستاذ العقاد صوراً سريعة لقراء الرسالة فى عددها الهجرى ... وقد كنا نقرأ عنه فصلاً فى إحدى المجلات الانجليزية فراقنا من المحرر أن يستدرك على المؤلف أنه لم يندمج فى الشعوب التى زارها ، بل قصر مقابلاته على الفئة الراقية ، أو أعلام المثقفين ، الذين يهمهم بالطبع أن يعطوا لمحدثهم صورة جميلة عن بلادهم قد لا تكون صادقة . وأشارت المجلة بهذه المناسبة إلى كتاب طريف عن الفتاة المصرية Newsgirl in Egypt يسد النقص الكبير الذى أخذته على كتاب المستر روم لاندو . والكتاب للمؤلفة الاجتماعية النابغة باربارا بورد Barbara Board التى أتت إلى مصر لتشهد حفلات زفاف حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، والتى لم تنزل فى فنادق القاهرة الفخمة كما يفعل سائر السياح ، بل نزلت ضيفة على عائلة من الفلاحين فى بيت ريفي مطل على النيل فكانت تتغلغل منه في صميم الحياة المصرية التى تمثلها غالبية من المصريين الفلاحين . ثم ذهبت المؤلفة من ذلك البيت فى رحلة طويلة إلى ... الخرطوم ! فاختلطت ببنات جنسها فى جميع المدن والقرى المصرية ، ووصفت طبائعهن وأفراحهن وأحزانهن ، وتكلمت طويلا عن الفوكلور المصرى وترجمت منه كثيراً من النكات والأغانى والمواويل وأغانى الزار وأناشيد الذكر وأغانى الكنائس البروتستنتية ...

ولم تهمل المؤلفة نهضة الفتاة المصرية المتعلمة ، بل تناولتها فى إسهاب وإطناب وإعجاب

تيسير قواعد النحو واشراك البلاد العربية فيه

اقترحت إحدى الدوائر المختصة بدراسات اللغة العربية فى وزارة المعارف على الوزارة أن تعنى منذ الآن ، وقبل أن تمضى اللجنة التى تألفت لتيسير قواعد النحو والصرف وغيرها من علوم اللغة فى عملها ، بإشراك الأقطار العربية فى أعمال تلك اللجنة منذ بدايتها

وبررت هـذا المقترح بأن مسألة القواعد مسألة لا تتعلق بالمصريين وحدهم ، وإنما هى مسألة جميع الأقطار العربية والمشتغلين بلغة العرب فى متباين أنحاء العالم ؛ وإذا أقدمت الوزارة على استدعاء أئمة اللغة ، وذلك بتوجيه الدعوة الرسمية إلى وزارات المعارف فى الأقطار التى يعنيها الاقتراح ، فان الوزارة تـكون قد وفرت على نفسها عناء عرض المقترحات التى تقرها لجنة التيسير على الناطقين بالضاد فى المستقبل ، وحتى إذا ما تم عرض القرارات يكون المشتغلون بمثل تلك الشئون على بينة من الأبحاث والدراسات ، وبهذا يتم تنفيذ ما يقترح فى أقرب فرصة

وينتظر أن يكون هذا الاقتراح موضع النظر والدراسة حتى إذا وافقت الوزارة عليه وجهت الدعوة إلى الحكومات العربية بندب الذين يقع عليهم الاختيار لتمثيلها فى اللجنة المشار إليها

حصة مصر !

من أمتع الـكتب التى أخرجتها المطابع الإنجليزية فى الأسبوع الفارط كتابان ، أحدهما عن اليـابان وعنوانه : (إلى أين أنت ذاهب : إلى اليابان ؟) للكاتب اللبق وللاردبرس Willard Price ، والآخر عن الولايات المتحدة واسمه (نهضة أمريكا نحو القوة) أو تاريخ حديث لأمريكا : للـكاتب المحقق و . ا . وود وارد . والـكتابان متشابهان من حيث الموضوع ، وكل منهما يبشر بالوطنيـة الإنجليزية بين الإنجليز مع ضرب المثل من الخارج كما يعبرون . ومن أروع ما قرأناه فى الـكتاب الأول ما ذكره المؤلف عن طرائق وزارة المعارف اليابانية فى بث روح الوطنية فى نفوس النشء . وأحسن ما ذكره فى هذا الباب هو أن هذه الوزارة حتمت أن يكون فى صلب جداول توزيع الحصص فى المدارس اليابانية حصتان يطلق على كل منهما (حصة اليابان !) كما نقول حصة الحساب وحصة اللغة وحصة التاريخ ... الخ . وفى هذه الحصة يتناول المدرس أحاديث حرة عن الوطن اليابانى وعن روح التضحية وعن الأمبراطور وعن أعداء اليابان وعن الجيش وعن الأسطول والطيران . وقد لوحظ أن هاتين الحصتين صارتا أحب الحصص إلى نفوس الطلاب لمـا يتناوله المعلمون من هذه الأحاديث الحرة ، ولأن امتحاناً لا يعقد فيما يلقنه التلاميذ فيهما

فما قول رجال التربية عندنا فى إدخال هذا النظام فى المدارس المصرية فتكون فى جداول توزيع الحصص (حصة لمصر ؟)

الوعظ السلبي فى المساجد المصرية

ما تزال طائفة كبيرة من خطباء المنابر فى المساجد المصرية تخطب المصلين خطباً سلبية عقيمة تضيق بها نفوس المصلين ، وأقبح شيء فى هؤلاء الخطباء أنهم لا ينون يسبون المصلين الذين يخطبونهم سباً قد يصرف المتمردين منهم عن غشيان المساجد بسبب هؤلاء الخطباء الذين يتهمون المصلين بالزنا ومعاقرة الخمر وسوء الفهم وقلة الصلاة ... الخ ، ويبدو أن شيئاً من التبعة فى هذا ، إن لم يكن أكثرها ، واقع على عواتق هذه الفئة المستنيرة المثقفة من وعاظ الأزهر العلماء ... ذلك أنهم لا يعنون بالاتصال بهؤلاء الخطباء أو جمعهم فى صعيد واحد وتلقينهم مبادئ الوعظ الحديث وأساليب الخطابة وطرق الإلقاء ، ثم معاونتهم فى تحضير خطبهم ليلحظوا أن يتفوق الجانب الايجابى فيها على الجانب السلبي . وحبذا لو تعاون الأزهر ووزارة الأوقاف فيعملا على تجديد عقلية هؤلاء الخطباء

الحسين بن على

مقالة الأديب الشيخ ضياء الدين الدخيلى : (مقتل الحسين وأثره فى الأدب العربى) فى (الرسالة الغراء) — ذكرتنى ببيتين من قصيدة لزيد الموصلى النحوى المعروف بـ (مَرْزَكَه) فى أبى الضيم (الحسين بن على) — رضى الله عنهما — فرأيت روايتهما فى (الرسالة) :

فلولا بكاء المزن حزناً لفقده ... لمـا جاءنا بعد (الحسين) غمامُ
ولو لم يشق الليل جلبابه أسًى ... لما انجاب من بعد (الحسين) ظلام

(الاسكندرية) (***)

مستشرق فرنسي كبير يحاضر بالجامعة المصرية

يلقي العلامة المستشرق الأستاذ ليفي بروفنسال أستاذ « تاريخ الغرب الإسلامي » بجامعة الجزائر والسوربون ونزيل مصر الآن محاضراته عن « الحضارة الاسلامية في أسبانيا » تحت رعاية كلية الآداب

والأستاذ بروفنسال متخصص في تاريخ المغرب والأندلس وله في ذلك عدة مؤلفات وبحوث قيمة نذكر منها « تاريخ أسبانيا في القرن العاشر » و« النقوش العربية في أسبانيا » وهما بالفرنسية و« فهرس المجموعة العربية بمكتبة الاسكوريال » كذلك وفق الأستاذ بروفنسال إلى إصدار طبعة جديدة لتاريخ دوزى الشهير عن الأندلس وإصدار الجزء الثالث من تاريخ البيان المغرب لابن عذارى ، وهو الآن يعنى بنشر مؤلف أندلسي نفيس برعاية الجامعة المصرية هو « كتاب الذخيرة » لابن بسام عن نسخة كاملة وفق إلى اكتشافها

وسيبقى الأستاذ بمصر بضعة أسابيع أخرى إجابة لدعوة الجامعة المصرية

المجلس الدولي للاتحادات العلمية

طلب المجلس الدولي للاتحادات العلمية في لاهاي إلى الحكومة المصرية أن تتخذ التدابير لكي تكون الهيئات العلمية في مصر على اتصال به ، تأييداً للروابط العلمية والثقافية ، ورغبة في تبادل الآراء والنظريات

وقد أحيل هذا الطلب إلى وزارة المالية ، فوقع اختيارها على الدكتور حسن صادق بك المدير العام لمصلحة المناجم والمساحة ليكون رابطة الاتصال العلمية بين مصر وهيئة هذا المجلس الدولي

ومما يذكر أن هذه الهيئة تبحث في العلوم المختلفة كالفلك وطبقات الأرض والجغرافيا وغيرها

خطأ في نسبة شاهد نثري

ذكروا من شواهد الأسلوب الحكيم قول القبعثرى للحجاج « مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب » وقد قال له الحجاج متوعداً : « لأحملنك على الأدهم » يريد به القيد لا الفرس الأدهم ، وأول من نسب هـذا إلى القبعثرى الخطيب القزويني في كتابيه (تلخيص المفتاح ، والايضاح) وتبعه في ذلك أصحاب الشروح والحواشي ، وذكروا أن القبعثرى كان من رؤساء العرب وفصحائهم ، ومن جملة الخوارج الذين خرجوا على الامام على رضي الله عنه

والحقيقة أن هذه النسبة خطأ ، وأن هذه المحاورة كانت بين الحجاج والغضبان بن القبعثرى الشيباني ، لا القبعثرى نفسه ، وقد ذكر هذا أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي في شرح مقامات الحريري (١٢٧ جـ ٢) وذكره الجاحظ في البيان والتبيين (٢٠٠ جـ ١)

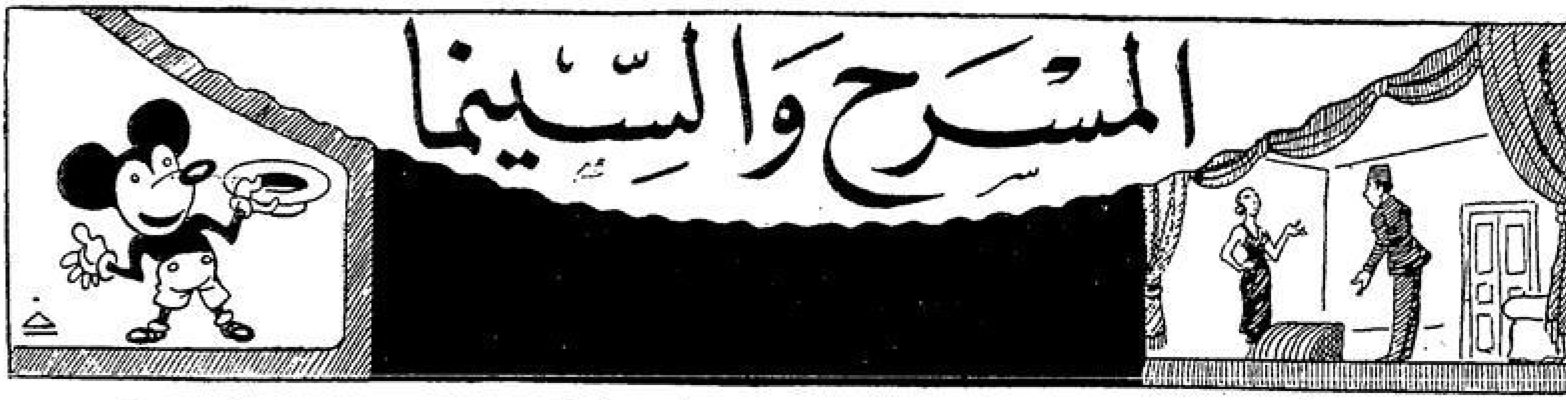
والحقيقة أيضاً أن الغضبان بن القبعثرى لم يكن من الخوارج المعروفين ، وإنما كانت تهمته عند الحجاج أنه أرسله إلى عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ليأتيه بخبره حينما بلغه خروجه عليه ، وقد كان مع عبد الرحمن سعيد بن جبير والشعبي وغيرهما ممن لم يكن من أولئك الخوارج الذين خرجوا على الامام على وغيره ، فلما وصل إلى عبد الرحمن قال له : ما وراءك يا غضبان ؟ قال : شر طويل ، تغدّ الحجاج قبل أن يتعشاك ، ثم انصرف إلى الحجاج وكانت مقالته قد وصلته من جواسيسه قبل أن يصل إليه ، فأمر به فوضع القيد في رجليه ثم سجنه

عبد المتعال الصعيدي

تصويب

وقع في قصة (هجرة معلم) للأستاذ على الطنطاوى في العدد الممتاز أخطاء مطبعية غيرت المعنى هذا صوابها :

الصفحة	العمود	السطر	
٥١٠	٢	٢٩	فيكون (صوابها) فيلسون
٥١٤	١	٧	الصلداء («) الصلدة
٥١٥	١	٢٣	بأشجارها المزهرة ، وطيبها وعطرها (سقطت منها جملة هذا صوابها) : بأشجارها المزهرة المتعانقة ، وأدواحها الباسقة ، وعيونها الدافقة ، وأنهارها الرائقة ، ووردها وزهرها ، وعنبها وتمرها ، وطيبها وعطرها ، وفتونها وسحرها
٥١٦	١	٢٥	الغاية الساذجة (صوابها) الغاية السامية
٥١٧	٢	٢٦	أين هذا من ذاك («) أين هذا من دارك



الفرقة القومية

برنامجها ورواية طيف الشباب

عادت الفرقة القومية إلى إتمام موسمها الثالث وقد افتتحته بتمثيل رواية « طيف الشباب » لمؤلفها الأديب الذائع الصيت مارسيل بانيول ترجمة الأستاذ أحمد بدرخان

أرجئ الكلام عن موضوع هذه الرواية ، لأن ظاهرة غريبة ظهرت فى الفرقة حملتنى على الوقوف حيالها موقف الواجم المبهوت . وبيان الاستغراب فى هذه الظاهرة أن الفرقة بشرتنا بأنها ستتحفنا بتمثيل اثنتى عشرة رواية في الفترة الباقية من الموسم وهى لا تزيد على الشهر الواحد إلا بضعة أيام فقط ، وأن أربعا من هذه الروايات وضعت وترجمت حديثاً ، والثمانى الروايات الباقية مثلت من قبل

للإدارة الفنية فى الفرقة القومية الحرية فى استعادة تمثيل الروايات الناجحة ، ولكن ما بالك بالروايات الموضوعة التى سيعاد تمثيلها وهي التى بلغت من تفاهة المعنى وسخف المبنى ، وهزال الفن مبلغاً حفز جميع النقاد المسرحيين بدون استثناء إلى ابداء استهجانهم لها وعدوا قبول الفرقة إياها لا يتفق وتقدير فن التمثيل ، ولا يحقق الغرض الثقافى الذى رمت إليه وزارة المعارف من إنشاء الفرقة ؟

ما هو السر يا ترى فى عودة الفرقة إلى احتضان هذه الروايات وإحيائها من جديد ؟ بل ما هو الباعث على جمع رمم روايتى « اليتيمة ، وبناتنا سنة ١٩٣٧ » وكان الواجب أن تبقى مدفونة فى الرماد ؟ أهو التحدى للنقاد وإهمال آرائهم ودراساتهم أم الاستهتار بالغاية الثقافية التى أسست الفرقة من أجلها ؟ نحاول أن نجل الفرقة عن هذا التدهور ، ونؤثر لها السلامة على التورط في الغمرات ، ولكن الواقع صارخ لا سبيل إلى السكوت عنه

ليس الطريق إلى معرفة نجاح الرواية أو فشلها هى القروش التى يجمعها بائع التذاكر ، أو حشر ردهة الأوبرا ومقاصيرها بمعارف هذا الممثل أو أصدقاء ذاك الموظف ، ولا بالمقالات المأجورة التى تنشر كالاعلانات

لا ، ليس السبيل إلى ذلك إلا بالاستماع إلى أقوال الناقدين والأخذ بالرأى الناضج

كنت أوثر الكلام عن رواية « طيف الشباب » لسببين : الأول أن المترجم متشبع بروح المؤلف ، لم يجنح عن البساطة فى الكلام الذى يعرب به عن الغاية من الفكرة الأساسية ، ولم يطمس معالمها بالألفاظ المتقعرة النابية التى يتوسل بها فقراء الذهن عشاق التزمت

والسبب الثانى أن المترجم فنان سينمائى ، يحسن الاختيار ويقدر ما هو صالح ونافع تقدير فنان خبير ، يصطفى بعقل وتدبر الرواية التى تجمع بين المعنى والمبنى ، والفكر والصيغة

كان يطيب لى أن أهيب بالفرقة أن توكل اختيار الروايات الغربية إلى أمثال الأستاذ احمد بدرخان وتترجم بسلاسة وبساطة كما ترجمها هو ، وأن أقول لها أشياء أخرى عن الروايات الموضوعة التى تتخبط فيها تخبط الضال فى غابة كثيفة بليل مدلهم الظلام

ولكن مالى أنصح الفرقة وأهديها ، ما فائدة الكلام فى إدارتها ورجال لجانها ، في ممثليها وممثلاتها ؟ لم العناء فى ذلك ؟ بل ما الفائدة منه مادامت تعمل وفق البداوات والنزوات ؟ ولم لا أقول لها أنت خير الفرق التى ماتت وأفضل الفرق السائرة فى طريق الموت ؟

حبيب الزحلاوى

كيف تكتب قصة الفلم ؟

بقلم محمد على ناصف

قصة الفلم : تعتبر قصة الفلم أهم النواحى الفنية فيه ؛ فإن من الميسور الآن أن تجد لأى فلم المخرج الذى يموّله ، والمدير الذى يتفهم إدارته ، والممثل الذى يحسن تمثيله ، ولكن ليس من السهل أن توفق إلى السيناريو الجيد الذى يبنى عليه عمل كل من هؤلاء ؛ ويقولون إن القصة الضعيفة تقتل النجم الكبير A weak story hills a great star ومثل هذا القول لم يكن على هذه الدرجة فى بدء صناعة السينما حيث كان الممثل هو أول وآخر من يحفل به ؛ ولكن أهمية الكاتب أصبحت ملموسة بعد أن صار الفلم ناطقاً ؛ وبعد أن ارتقت السينما وأخذت اتجاها أدبياً رفيعاً يظهر أثره يوماً بعد يوم

فمن نتائج الفلم الناطق أنه أشرك الأذن مع العين فى تذوق فائدة السينما ؛ والأذن — علمياً — أشد انتقاداً من العين ، لأنه من الجائز ألا تلمح عينك قبح وجه يخفيه طلاء متقن جميل، ولكنك لن تستطيع أن تحمل أذنك على الإعجاب بقول قبيح تستمعه فى مناسبة جميلة

وقد أصبح الحوار فى الأفلام بعد تثقيفها من الخطورة بمكان لأنه يساعد الصورة على التعبير ، وقد يكون فى كثير من الأحيان أهم من نفس الصورة ؛ ولقد شاهدنا فلم « روميو وجوليت » فكان إخراجه قوياً وتمثيله رائعاً وتصويره جميلاً ، ولكن كان أهم ما بالفلم حكم شكسبير التى أنطق بها أشخاص روايته الخالدة

كاتب الفلم : يخطئ من يحسب أن كل من له دراية بكتابة الرواية أو المسرحية أو كل من له اسم كبير فى عالم الأدب يمكن الاستفادة منه فى كتابة قصة الفلم ؛ وقد وقع فى هذا الخطأ كثير من المشتغلين بالأفلام فى بدء عهودها فتعاقد هؤلاء مع موريس مترلنك ، أرنولد بنيت ، سيرجلبرت باركر ، سومرست موغام ، ألينور جلين ، كدنان دويل وغيرهم ؛ ولكن واحداً من هذه العقود لم يجدد مرة أخرى ؛ وقد أصبحت حقيقة ملموسة أن أشهر كتاب القصة السينمائية ليسوا من الأسماء المعروفة فى عالم الأدب إلا أن تكون الشهرة الأدبية قد جاءت ملحقة بالشهرة السينمائية

ولقد اقتنع جميع الكتاب المعاصرين الذين تخرج مؤلفاتهم فى السينما بأن كتابة الأفلام شىء يختلف عن كتابة الكتب فسلّم أكثرهم مؤلفاتهم إلى أيدى كتاب الاستديو من غير قيد ولا شرط

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧